الولد و النهر



هنري بوسكو

ترجمة: هنري زغيب

الولد والنهر

تاليف هنري بوسكو

ترجمة هنري زغيب

الولد والنهر

ترجمة هنري زغيب

الطبعه العربية الاولى ١٩٩٠

الناشر وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال بريد ٨ شباط
العراق ـ بغداد ص. ب ٨٠٤١

سلسلة مكتبتنا

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام: فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف

الولد
والنهر

المؤلف

ولد هنري بوسكو في آڤينيون عام ١٨٨٨ ، من عائلة يتوزع أصلها بين مقاطعة پروڤانس وسهل پييمون • وكان والده قصاب حجارة وعوادا •

بعدما أنجز دروسه الثانوية في آڤينيون وچرونوبل وفلورنسا، تخصص باللغة الايطالية وآدابها ، ومارس التدريس في آڤينيون وبورج وفيليبڤيل •

بدأ يكتب منذ كان في السابعة من عمره ، وصدرت روايته الاولى « پيير لامپيدوز » عام ١٩٢٤ ، وفيها بذور المناخ الذي سيطغى على رواياته وقصائده اللاحقة : مناخ السر الممزوج بالواقع اليومي ، والحياة الفلاحية بكل ما فيها من معتقدات سلفية ، وسحر الحياة في مقاطعة البروڤانس •

نال هنري بوسكو جوائز عديدة على كتاباته [وهي بلغت نحو ثلاثين رواية ، وكتب عديدة للاطفال ، ومجموعات شعرية]• أبرز تلك الجوائز :

* جائزة رينودو عام ١٩٤٥ .
* جائزة السفراء عام ١٩٤٩ .
* الجائزة الوطنية الكبرى للاداب عام ١٩٥٣ .
* الجائزة الكبرى لادب الفتيان عام ١٩٥٩ .
* الجائزة الكبرى للادب من الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٦٨ .

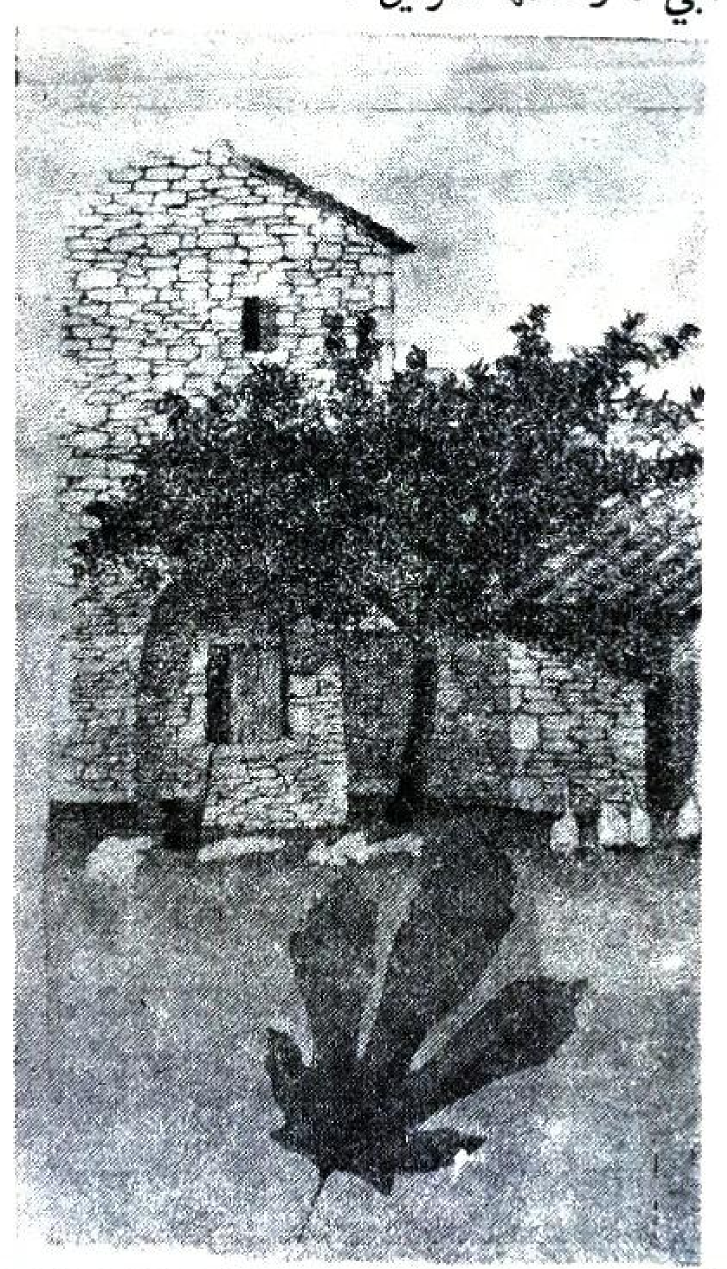
وهنري بوسكو توفي عام ١٩٧٥ بعد حياة أدبية حافلة .

الفصل الاول

التجربــة المغريــة

(التجربــة المغريــة)

طفولتي الاولى كانت في الريف ، حيث كنا نسكن منزلا بين الحقول . وكانت حياتنا هانئة في تلك الاكارة(*) ، وتعيش معنا فيها عمة أبي ، وأسمها مارتين .



(*) الاكارة : ارض مستأجرة بطريق المزارعة . تقسم غلتها بين المؤجر والمستأجر .

كانت العمة مارتين امرأة عجوزا ذات شعر كثير الالتفافات . وثياب كثيرة الثنايا . ودائما على وسطها تتدلى مقصات ذهبية . وكانت متسلطة قوية ، قاسية على الجميع : الاهل ، الكلب . البط ، والدجاج . وكثيرا ما كانت تؤنبني لسبب ولغير سبب ، صبحا ومساء . ومع أنني كنت ولدا هادئا ومطيعا ، لم أكن أنجو من تأنيباتها اللاذعة . لكنها كانت تحبني كثيرا في سرها ، وتخبىء هذا الشعور الجارف نحوي ، بتأنيبي لسبب ولغير سبب .

كيفما تلفت حول منزلنا ، لم أكن أرى الا حقولا ، وصفوفا طويلة من السرو العالي ، وبعض المساحات المزروعة ، واكارتين او ثلاثا متفرقة كيفما اتفق . منظر رتيب كان يزيد من الحزن والوحدة في نفسي .

وكنت أسمع من أحاديث العشايا ، خاصة في سهرات الشتاء ، عن نهر وراء ذلك المنظر ، لم أكن رأيته بعد . كان يلعب دورا مهما في العائلة لما يأتي على مزروعاتنا من خير حينا وسوء أحيانا . فتارة يخصب أراضينا ، وطورا يتلف محاصيلها . وهو ، على ما يبدو من تلك الاحاديث ، كبير وجارف . في الخريف ، مع الامطار الغزيرة ، تعلو مياهه ويتناهى هدير تدفقها من البعيد ، وأحيانا تطيح الحواجز والسدود وتعوم فوق الحقول المزروعة ، ثم تنسحب مخلفة وراءها الوحل والطين . أما في الربيع ، بعدما تكون الثلوج ذابت عن قمم جبال الالپ ، فتتدفق مياه أخرى تطيح كذلك بالحواجز والسدود وتطفو فوق الحقول فتتحول

عده الى مستنقع واحد كبير . واما في الصيف . وتحت الحرارة الشديدة ، فالنهر ينضب تاركا وراءه جزرا صغيرة من الحصى والحجارة والرمل هنا وهناك .

كل هذه المعلومات اكتسبتها من السمع . فأبي غير مرة حذرني:

— إلعب حيثما تشاء . فلن يضيق بك مكان في هذه الحقول. إنما إياك والتوجه صوب النهر . وأحيانا تضيف أمي :

— في النهر ، يا حبيبي ، حفر عميقة مميتة ، وثعابين على الطريق اليه بين القصب ، وغجر مخيفون يعيشون على ضفافه .

لم أكن في حاجة الى أكثر من ذلك كي أحلم بالنهر وأفكر به ليل نهار . وكلما فكرت به ، اعتراني في مفاصلي خوف هائل ، لكنه لم يكن يلغي رغبتي الشديدة في التعرف الى النهر عن كثب.

بين الحين والاخر ، كان يمر بنا صياد ضخم الجسم ، قاسي الملامح ، ثاقب النظرة ، حاد الذكاء . وكان يوحي بالقوة والمرونة معا . فيداه كثيرتا العقد ، ورجلاه مقرتتان ، وأصابعه رشيقة . أحيانا كنت اشبهه بالظل ، لا صوت له . وحين يصل ، يبادر أبي الى القول :

— هه ! هذا هو باركابو ، يحمل الينا السمك الطازج .

وبالفعل ، يضع باركابو على طاولة المطبخ سلته الممتلئة سمكا لماعا يثير اعجابي ، فأروح أتأمل بين الطحالب — بطون السمكات

(*) الشابلة : سمكة تشبه السردين ، تعيش في المياه الحلوة كمياه النهر .

الذهبية وظهورها المزرورقة وزعانفها الشائكة . وكم كنت أفرح لرؤية بعضها ما زالت تنبض لخروجها من المياه قبل وقت قليل .

وإذ يسأل أبي :

ـ باركابو ، كيف يمكنك أن تأتي بسمكات جميلة كهذه ؟

يجيب الصياد بنبرة هاربة :

ـ الله يشفق على الفقراء أمثالي ، وأنا لي يد ماهرة في الصيد .

ويكتفي أبي بالجواب فلا يستطرد .

ذات يوم ، وكنت في المنزل وحدي ، أطل بار كابو ، فجأة كعادته . كان يحمل على طرف صنارة معقوفة شابلة(*) هائلة فبادرني :

ـ هذه لك . خذها . أهبك إياها .

ووضع السمكة على طرف الطاولة ، ثم التفت إليّ بنظرة غريبة وأردف :

ـ إن في وجهك ، أيها الولد ، ملامح صياد . هل سبق لك واصطدت سمكا في النهر ؟

ـ كلا ، سيد باركابو ، والداي يحرمان عليّ الذهاب باتجاه النهر .

فهز بكتفيه وأردف :

ـ من سوء حظك . لو انك تأتي معي ، لدللتك على مكان لا يعرفه أحد ، متوغل بين الجزر الصغيرة .

منذ ذلك اليوم ، لم تعد هذه الفكرة تفارقني ، حتى حجبت عني النوم • ورحت في الليالي أفكر بتلك النواحي المجهولة الجسيلة المتوغلة داخل الغابة على ضفاف الجزر ، حيث لا أحد يصل إلا باركابو •

في مرات لاحقة ، أراني باركابو شصوصا فولاذية زرقاء جميلة ، وعددا من قطع الفلين المقصوصة على القياس •

ورحت أعجب بباركابو أكثر فأكثر ، رغم ما كان في عينيه من ملامح حيلة تخيفني • وبسبب هذه الملامح ، أخفيت اعجابي به ولم أظهره له • وكان كلما جاء الى منزلنا ، أخشاه ، حتى أن دقات قلبي تزداد كلما سمعت وقع خطواته في فناء المنزل ، وكلما ذهب أترقبه من جديد • ولم يطل به الامر حتى تنبه الى اهتمامي به لكنه تظاهر بعدم الاكتراث مما كان يعذبني أكثر • أحيانا كان يغيب خمسة عشر يوما فأضطرب قلقا وتجمح بي رغبة قوية الى الذهاب باتجاه النهر • لكن خوفي من أبي القاسي كان يردعني •

في الشتاء ، كان البرد يقرس ، والهواء يعوي ، والثلج يتساقط ، وعبور الريف ضربا من الجنون •لذا يحلو التحلق حول النار ، بدون الخروج لايام احيانا • أما في الربيع ، فالهواء ناعم والطقس جميل ، ويحلو الخروج الى الحقول • وكانت رغبة الخروج تجمح بي كما بسواي • لكن الخوف من الابتعاد كان ينذرني بعاقبة وخيمة ، فأرتدع • إنما كنت أشعر أنني ، ذات يوم ، أغامر وأتوغل صوب النهر • وبالفعل رحت أترقب الفرصة المناسبة •

الى أن حانت ذات يوم ، كما يلي :

اضطر والداي مرة الى التغيب عدة أيام ، فبقيت وحدي مع العمة مارتين • صحيح أنها ، كما قلت ، متسلطة قاسية ، لكنني حين أمسي وحدي معها ، تتاح لي كل الحرية ، لانها هي تشعر بحريتها أيضا فلا تعود تراقبني من الصباح حتى المساء • فالذي يراقب الاخرين طوال الوقت ، يحبس نفسه في هذا الوقت أيضا •

كانت العمة مارتين تعرف ذلك ، لذا تدعني أتصرف بدون مراقبة ، وتروح هي تتصرف بتحركاتها في المنزل ، طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، صباحا ومساء بخطواتها الصغيرة كخطوة الفأرة • بينما حين يكون والداي في المنزل ، تخلد الى الجلوس والجمود • أما في غيابهما ، فتبدأ بالحركة ، وتختفي عن الانظار ، ولا يبقى من أثرها الا صوت تنقلاتها من غرفة الى غرفة ، ومن القبو الى غرفة المؤن •

ما الاعمال التي كانت تقوم بها ؟ لا أحد يعلم • كانت تصدر عنها ضجة غريبة ، فالخشب يطقطق ، والجرار الخزفية تتكسر ، ثم ••• يسود صمت تام ! على ان بين جميع الامكنة المتوفرة في منزلنا القديم ، كانت العمة مارتين تفضل تخشيبة السقف ، تتسلق إليها بعد الظهر ، ولا تغادرها الا مع خيوط الليل الاولى • كانت تلك عزلتها المفضلة ، حيث تصطف الصناديق القديمة المسمرة بالنحاس والموشحة بوبر الماعز • صناديق تعود الى عشرات السنين السحيقة ، فيها ثياب عتيقة جدا ، تفوح منها رائحة العفن لكن منظرها جميل • وفي تلك التخشيبة أيضا ، صور معلقة على

الجدار للعائلة . وفي احدى الزوايا كومة من أواني الطعام المطلية بماء الذهب . الى جانبها شمعدانان فضيان فوق صندوق من خشب الابنوس . وكتب مجلدة متروكة على الارض وسط كومة من الاوراق الصفراء التي عبثت بزواياها الفئران . ومن السقف يتدلى تمساح صغير من القش ، هدية من عم لها بحار قديم يدعى هنبيغل .

وحين تصعد العمة مارتين الى تخشيبة السقف ، لا دافع ، مهما كان ، يرغمها على النزول قبل وقت طويل ، تقفل وراءها الباب بالمفتاح ، ولا تدعني ألحق بها وأجلس معها . وغالبا ما تقول لي :

ـ إذهب الى الحديقة والعب . أريد أن أسوي اغراضي القديمة .

وكنت أفهم فأروح أتيه في المنزل بلا هوادة ، ثم أجلس تحت التينة عند البئر .

وهناك ، تحت التينة ، ذات صباح من نيسان ، فاجأتني التجربة المغرية ، وعرفت كيف تغريني . كان الطقس ربيعيا ، والسماء صافية وأوراق الشجر الخضراء والأزهار تتفتح . لذلك ، نجحت التجربة في اغرائي .

تغلغلت بين الحقول ، قلبي يخفق فرحا ، والربيع حولي مشع بكل جماله ! وحين بلغت البوابة الكبيرة التي تفصلني عن السهل الواسع ، وفتحتها ، عبقت في شمي روائح الاعشاب والاشجار والقلق الطري .

ركضت لا التفت ورائي ، حتى وصلت الى غابة صغيرة . ترقص فيها مئات النحلات ، يتماوج الهواء وراءها بتأثير رفرفات أجنحتها المتناثرة منها غبار اللقاح الى الزهر . الى أبعد قليلا . بستان لوز كأنه ثلج من الزهر الابيض تسجع فيه اليمامات الاولى لربيع هذا العام .

كنت نشوان من كل ما حولي . واخذت الطرقات الجانبية تتجاذبني ، كأنها تقول لي :

ــ تعال ، تقدم ! إن هي إلا خطوات قليلة إضافية ! المنعطف الاول لم يعد بعيدا . ستتوقف أمام شجرة الزعرور .

وكانت تلك النداءات تضيع صوابي وتحث قراري . ولكن اذا أنا اندفعت في هذه الدروب الصغيرة التي تتأفعن (تسير ملتوية كالافعى) بين سياجين ممتلئين بالعصافير يطلان على خليج زرقاوي كيف يمكن لي أن أتوقف ؟

بالفعل ، رحت أكمل نشوان مما يطالعني . وكلما تقدمت ، حدت بي الرغبة أقوى الى المواصلة . فالمساحات المزروعة تتضاءل ، وتمسي الارض مخصبة أكثر ، تنبت في حواشيها أعشاب رمادية طويلة أو شجيرات صفصاف . وكان الهواء يحمل رائحة الطين الرطب .

فجأة . انتصب سد أمامي ، هو ساتر ترابي عال تعلوه أشجار حور . تسلقته بتؤدة . حتى اذا بلغت قمته ، وجدتني .. أمـام النهـــر !!

رحت أتأمله مبهورا : إنه عريض ويجري صوب الغـرب . مياهه العالية من كثرة ذوب الثلوج ، تهدر جارفـة معها جـذوع الاشجار . وهي بدت عميقة ورمادية ، تتخللها دوامـات لولبية سريعة تسحب اليها حطبا من كل نوع . وكلما اعترض المياه حاجز أطاحته بزمجرة وهدير ، وأكملت بعرضها البالغ نحو خمسـمئة متر ، هاوية صوب المصب . وفي الوسط ، كان يسير تيار أكثر شراسة ، يظهر من عرف قاتم يقطع طمي المياه . ارتعشت لمـرآه ، وشـعرت بالخوف .

عند سافلة النهر ، جزيرة تقسم تدفق المياه ، ويصعب بلوغها لعلو سدها المغطى بغياض كثيفة . وكانت تنبت في تلك الجزيرة العريضة أشجار كثيرة من السندر والحور ، وتتراكم عند محيطها جذوع الاشجار التي تجرفها المياه .

حين عدت بنظري الى الشاطىء ، فوجئت عند قدمي تماما ، تحت السد العالي ، بجون صغير يدخل فيه لسان من الرمل الناعم ، وتهدأ فيه المياه صافية رقراقة . نزلت اليه على مهـل ، فطالعتني جنبات الرباط(*) وقصبات عالية ومائهات(**) خضراء مزرقـة

---

* جنبات الرباط : نوع من الشجيرات يستعمل للتزيين .
** المائهات : شجيرات حرجية تألف الماء .

تشكل مغارة معتمة فوق الجون الصغير ، تئز فيها مئات الحشرات الطــائرة •

على الرمل الناعم آثار أقدام حافية ، من الماء باتجاه السد • ذات عرض هائل وملامح حيوانية • انتابني الخوف فجأة ! فالمكان موحش منفرد ، ولا صوت فيه الا هدير المياه • فمن تراه يتردد على هذا المكان المنعزل ، عند هذا الشاطىء السري ؟؟

قبالتي ، الجزيرة صامتة • لكن صمتها بدأ يثير في الريبة • احسستني ضعيفا وحيدا ومعرضا للخطر • لكنني لم أشأ العودة• لم أكن أستطيع الرجوع • كانت قوة خفية سحرية تشجعني على البقاء في هذه العزلة • فتشت عن دغل أختبىء فيه ، لعل أحــدا يراقبني ويتبعني • اندسست تحت دغل شـــائك ، أرضه ناعمــة تغطيها قشرة رقيقة من الطحلب اللين واللزج • واذ اطمأننت الـــى أنني بت مخفيا عن الانظار ، رحت أنتظر وأترقب كل حركة ، فيما عيناي مركزتان على الجزيرة •

مر وقت لم أر خلاله شيئا • كانت تنبسط علي ظلال الاوراق وحولي تتواصل رقصات الحشرات الطائرة • احيانا يطير عصفور، أو تندفق موجة قصيرة من المياه داخل الجــون تبطئها تعرجــات الشاطىء • طال الوقت حتى بات رتيبا ، وبــات الهــواء باردا ، فغلبني النعاس وغفوت •

لم أدر كم طال نومي ولا ما الذي ايقظني • لكنني ، حـينـ

فتحت عيني ، مدهوشا من وجودي في عب، هذا الدغل . رأيت الشمس تكاد تغيب وتلفظ آخر شعاعاتها .

لم يبد أن شيئا تغير حولي . مع ذلك بقيت منتظرا حدثا ما .

فجأة .. وسط الجزيرة ، رأيت سحابة دخان زرقاوية صافية تعلو بين أوراق الاشجار . إذا : الجزيرة مسكونة ! بدأ قلبي يخفق اضطرابا . تفرست في الضفة المقابلة ، فلم أر شيئا ولا أحدا! وبعد وقت قليل ، صغرت سحابة الدخان ، وراحت تنسحب ممزقة على أعالي الشجر ، حتى لم يبق منها أي أثر .

ومع هبوط المساء ، خرجت من مخبأي ، ففوجئت بآثار الاقدام على الرمل ازدادت آثارا أخرى ، مما يعني أن أحدا مر من هنا فيما كنت نائما . تراه رآني ؟؟

اشتدت العتمة بين القصبات الكثيفة ، وفر من بين الاسل قربي عصفور وهو يطلق تغريدة طويلة أجابتها أخرى جريحة من الجزيرة .

امتلكني خوف شديد ، فعدت أدراجي هاربا لا ألوي على شيء .

وصلت الى البيت في أول الليل ، فاستقبلتني العمة مارتين بشتى أنواع الكلام الغاضب :

— أيها الارعن ! أيها الطائش !

ثم اقتربت مني تشمني باستغراب :

ـ ما ريحة الطين هذه تنبعث منك ؟
واقتربت أكثر :

ـ وما هذه الاشواك والاوراق العالقة في شعرك ؟ إذهب وسرحه •

انصرفت من أمامها بدون جواب • كنت أعرف طبعها : صراخ وغضب ، ثم لا تلبث أن تهدأ •

لحقت بي مردفة :

ـ ألا تخجل من منظرك هذا ؟
طبعا كنت أخجل • لذلك بقيت مطرق الرأس بدون تعليق •
وأردفت :

ـ ماذا لو أخبرت والدك !؟!

طبعا كنت عارفا بما سيحصل لو أخبرت والدي • لكنني كنت أعرف أنها لن تفعل ، من شدة محبتها لي ، وإخالها كانت تقول في سرها : « من حسن حظك ان العمة مارتين ضعيفة أمامك لكثرة ما تحبك • على كل حال ، والدك ، في سنك ، لم يكن أكثر هدوءا » •

ثم ما لبثت لهجتها التهديدية أن هدأت ، فقالت :

ـ أنت جائع طبعا ••

ـ نعم يا عمتي ••
فأخذت تهيىء المقلاة وهي تدمدم :

ـ منذ السابعة صباحا وأنت خارج البيت . طبعا رأسك يدور .

ـ نعم يا عمتي . عندي دوار خفيف .

ـ وأنا ما عندي لك الا عشاء خفيف : حساء قليل ، رأسان من البندورة ، وبعض المقانق .

وهنا سمعنا وقع خطوات ، ثم دخل علينا باركابو من باب المطبخ .

بدا لي كبيرا كما ولا مرة من قبل . وكان ذا ملامح برية ، حتى كادت العمة مارتين تفلت المقلاة من يدها . أما هو فلم يتنبه لذلك . وبادرنا :

ـ أحمل إليك سمكا طازجا . إقليه . ولا أظنك ترفضين أن تقدمي لي كأس من الشراب .

وجلس الى الطاولة ، فتناولت العمة مارتين السلة وسمعناها تنزع حراشف السمكات ثم رأينا الزيت يحترق في المقلاة . وبعد دقائق كانت العمة مارتين تدعو باركابو وتضع أمامه على الطاولة كأس من الشراب والخبز الاسمر وبعض الخل . فسحب من جيبه سكينا طويلا قص به شريحة خبز كبيرة وضع فيها سمكتين وأخذ يأكل .

كنا ننظر اليه يلتهم الطعام صامتا وتفوح منه رائحة النهر . وما هي حتى انتبه الى أننا لا نأكل ، فبادرني :

— يجب أن تأكل يا بني . اصطدت هذه السمكة الكبيرة لاجلك . من ضفة النهر . تعرف النهر أنت ، بجزيرته وأدغاله التي يسكن الاختباء فيها عن عيون الناس .

أصابني شحوب تنبهت اليه العمة مارتين . لكن باركابو تناول تلك السمكة بسرعة ، ووضعها في صحني ، ثم شقها ببراعة وسحب منها الحسك وسكب نقطتين من الزيت عليها وبعض الخل وقال :

— ها هي جاهزة ، فالتهمها .

وبقيت العمة مارتين صامتة حتى نهاية العشاء .

بعد رفع الصحون ، أخذ باركابو وهو صامت ، يرسم بطرف سكينه اشكالا مختلفة على الطاولة . بعضها لاسماك غريبة ذات زعانف ضخمة وبعضها الاخر ذات رؤوس كبيرة تفتح أفواهها للفراغ . كما رسم أفاعي منوعة وسلاحف ماء .

بقينا أنا والعمة مارتين صامتين مبهورين بهذه الاشكال وفجأة ، دمدم باركابو :

— أحس كما باعصار قريب .

وبالفعل ، بعد لحظات سمعنا رعدا بعيدا ، فنهض باركابو قائلا :

— عمتما مساء . يجب أن أغادر . سيدهمني الوقت ولا وقت عندي أضيعه .

وخرج في ذاك الليل الذي استمر بالرعد حتى الصباح ، مصحوبا ببروق كثيرة كانت تنفتح في قلب السماء كمقصات من نار . وقد سقطت صاعقة على شجرة صنوبر فسحقتها وارتج البيت وهي تهوي وتردد الصدى في الطابق الارضي .

كنت ملتحفا الى ما فوق رأسي ، وافكر بالنهر وكيف يكون تحت التماعات البروق بألسنتها الزرقاوية .

وكان المطر شديدا تلك الليلة ويضرب جوانب البيت فتهتز تحت زخاته .

ومع الصباح ، هدأ الاعصار ، واخترقت الشمس حجب الغيوم الكثيفة فأرسلت شعاعاتها الدافئة الى الحقول المبللة بمطر الليل .

ولم تجف الحقول من مياهها الا بعد ثلاثة ايام ، بقيتُ خلالها في المنزل لم اخرج فيما العمة مارتين استعادت تحركاتها في المنزل بخطواتها الصغيرة وغرقت في انشغالاتها حتى نسيت تماما حادثة هروبي طوال ذاك النهار .

الفصل الثاني

الجـــــزيرة

(الجـــزيرة)

أعدت الكرة ذات صباح ثلاثاء . كان النهار في أوله ، والعمة مارتين لا تزال نائمة في غرفتها ، بعــدما بقيت في الليلة الســابقة



تنقب حتى منتصف الليل . أفدت من استغراقها في النوم حتــى

أحشو كيسا صغيرا ببعض المؤونة من التين والجوز وقطعة خبز كبيرة •

بعد ساعة ، كنت عند ضفة النهر •

ما كان أروعه ! موجه رقراق ، وسطحه يعكس سماء صافية، نقية إلا من غيمتين صغيرتين يطاردهما الهواء وتنعكس ظلالهما على صفحة المياه المنسابة سريعة صوب أفق بعيد من التلال • ولم يكن التيار الاوسط المخيف ، المعتمر تلك القلنسوة السوداء . يعكر وجه تلك المرآة الهادئة • لذا كان النهر يبدو ضاحكا بين ضفتيه الملونتين بمسحة وردية في ذاك الصباح المنبلج • وفي البعيد كان طائر «قاوند» يطير فوق الجزيرة ، فيما النسيم الصباحي يدمدم بين القصب •

مشيت بمحاذاة الضفة حتى بلغت كوخا قائما فوق الماء على أربعة أوتاد ، يصار الى بلوغه على ممر صغير • في داخله ، على أرجوحة صغيرة معلقة ، بساط من الطحالب الجافة • من السقف تتدلى شبكة عتيقة ، وفي احدى الزوايا بعض أدوات المطبخ • فكرت : « هنا يأتي باركابو لينام حين يصطاد السمك » •

تحت الكوخ ، شويطىء يتهادى فيه مركب صغير مربوط الى وتد • تأملته فاذا هو عتيق منخور ، تتسلل المياه من بين شقوقه ، والطلاء انقشر عنه لطول رسوه تحت الشمس والمطر • كان بلا مجاذيف ، ويعيقه عن الانسياب في النهر حبل من القنب ممزق ، بعضه غارق تحت صفحة الماء •

أغراني هذا الهدوء ، فانسللت حتى المركب . وبعد تردد قصير ، وضعت فيه رجلي فلوى بثقلها . اعتراني خوف شديد ، لكن المركب عاد الى توازنه ، فصعدت اليه وجلست في الوسط على المقعد بكل حذر وبدون حركة . كان كل شيء ساكنا حولي : الماء ، النهر ، المركب ، وشعرت بفرح وسعادة رغم كل الخوف الذي يعصر قلبي .

خلفي كان الشاطىء ، وأمامي النهر ينساب ، وعند سافلته تبدو الجزيرة طالعة من بين أشعة النهار الاولى ، وتمسح عنها بقايا الضباب الصباحي ، فتبدو أشجار الحور والدردار والسندر كثيفة يتسلل النور من بين أوراقها الكثة . وفي البعيد ، صخرة كبيرة زرقاوية وسط المياه ، تتكسر عليها مويجات النهر المهرولة. أما ضفاف النهر، فوردية تعبق منها خلَلَ الضباب الصباحيروائح الشجر الطري والاعشاب والازهار البرية ، مما أخذني في غمرة من النشوة اللذيذة .

فجأة ، وكما في المرة السابقة ، تصاعد الدخان من بين الاشجار . ففكرت : « هذا باركابو يشعل النار ، ليقلي سمكا اصطاده » . وتحسرت على أنني لست في الجزيرة .

المركب ما زال جامدا بي . فلا موجة ، ولو صغيرة ، كانت تصل الى هذا المرسى الصغير حيث أنا في مأمن من الاعين ، ويمكنني أن أراقب المياه المنسابة بصمت محدثة خريرا يسحرني .

لم أعد منتبها الى الوقت والمكان ووجودي ، ولا الى ما

الذي يجري : المركب أ النهر حتى لم اعد ادري اذا كانت المياه تسير أم أنني أنا اجري بدون مجاذيف • كل ما اعرف انني وجدت نفسي في وسط النهر ، والكوخ بات ورائي بعيدا على الشاطىء •

عندها تنبهت وخفت : « أين أنا » ؟ الحبل انقطع بين المركب والكوخ ، وتيار المياه يقذف بي على هواه • حاولت التقاط غصن طاف على صفحة المياه ، لكنه أفلت مني • ورحت أتوغل في وسط المياه بدون أي دفع ، وابتعد عن الشاطىء • اعتراني برد الخوف • فالمياه التي كانت في البدء منسابة أمامي ، باتت حولي من كل جهة ، يجرفها التيار القوي ويجرفني معها ، حتى بت أراها تهجم باتجاهي عالية من البعيد ، وتدفعني بدون ارادتي صوب طرف الجزيرة حيث تتكسر الموجات الراكضة بشكل مخيف • ومع الاقتراب من الجزيرة كان غضب الموج يزداد ، وسرعة التيار تزداد ، وتجرف المركب بي أسرع فأسرع • وكانت المياه تتسرب من شقوق المركب فيطقطق هذا تحت ثقلها ، ويدور بي على نفسه وسط دوامة التيار ، ثم يتجه من جديد وبسرعة صوب طرف الجزيرة بخطر كبير من اصطدام قاتل قد ينقلب بي المركب عنده وأغرق • امتلكني الخوف فأغمضت عيني وبقيت أسمع زمجرة المياه ، ثم أحسست بسرعة المركب خفت فجأة ، ففتحت عيني واذا بهيكل المركب يصطدم بكومة من الحصى • ها أنذا ، والحمد لله، نجوت !! كانت تلك الكومة على أمتار قليلة من الجزيرة ، ذات انحدار خفيف ، وفي الجهة الاخرى من زمجرة التيار العنيف الذي يودي الى موت محقق •

بقفزة سريعة ، كنت على اليابسة .

وعندها انفجرت باكيا من خوف وضياع .

وبعدها بكيت من كل قلبي ، فهمت وضعي : ها أنذا هنا ، تفصلني مئتا متر من المياه العميقة عن الشط الذي خلفه المنازل والناس ، وعلى بعد كيلومترين منه بيتنا بين باقة من الصنوبر والدلب ، ويرسل دخانه صوب السماء في هذه الساعة الصباحية . فالعمة مارتين استيقظت حتما وأشعلت الحطب في المدخنة وبدأت تبحث عني .

بدرت مني لحظة يأس ، وتساءلت : « كيف الخروج من الجزيرة ؟ من أناديه فيسمعني » ؟

جلست على جذع شجرة وأخذت أفكر . لكن تفكيري ، مع الاسف ، لم يذهب بي بعيدا . فجميع أفكاري انتصبت حولي تنهرني : « لقد ضعت » . لكن ما كان يشغلني اكثر : « ماذا ستقول العمة مارتين ؟ ها هي منذ الان ، ولا تزال الساعة التاسعة، بدأت تقلق ، فما حالها في منتصف الليل ؟ وفي منتصف الليل سأكون حتما هنا ، والمياه تنساب حولي في عتمة الليل مخيفة راعدة !! » .

حزينة .. حزينة كانت أفكاري .

في تلك اللحظات ، حمل النسيم إلي رائحة خشب يحترق . وعاد الى ذاكرتي منظر الدخان الذي شاهدته مرتين بين الاشجار . ففكرت : « يجب ان اتحقق من ذلك » . ورحت أتوغل بين الادغال ، حتى بلغت طرف فرجة في الغابة .

تقدمت اكثر ، فرأيت كوخا ، واسعا مستديرا ، على بابه كيس معلق ، وفي باحته ثلاثة حجارة ، لا تزال النار مشتعلة بينها ، محدثة دخانا يتصاعد فيلحس قدرا كبيرة سوداء غريبة الشكل ، ذات أذنين صغيرتين وجوف سمين منتفخ •

وكانت أمام الموقدة فتاة منحنية تؤجج النار بقضيب طويل، وأبعد منها قليلا : قطة نائمة، ودجاجات تنقر الحبوب عن الارض•

فمن يكون هؤلاء المساكين الذين يسكنون في هذا الكوخ من الاغصـان ؟

كانت الفتاة تلبس ثيابا رثة ، عيناها سوداوان ، بشرتها داكنة ومنظرها فعلا غريب : في أذنيها حلقتان نحاسيتان ، وأحيانا تدندن لحنا غريبا بصوت هامس • ابعد منها ، حمار يجول في الباحة • وخلف الكوخ ، تحت احدى الاشجار ، كتلة غريبة بنية • أقلقني منظرها ولم أستطع تبينها مليا ، لبعدها عني • كانت جامدة • فهل هي جثة حيوان ؟

من القدر كانت تتصاعد ألسنة البخار الحلزونية ، وتفوح منها رائحة زكية • وما هي حتى جاء غراب من الغابة وحط على كتف الفتاة ، فخاطبته • بهت للمشهد فانتصبت واقفا لارى أوضح فجأة ، استدارت الفتاة وتطلعت صوبي بدون أن تبدي اية حركة•

تراهـا رأتني ؟

ثم خرجت من الكوخ امرأة هزيلة قاسية الملامح ، تحمل في يدها ديكا من عنقه ، واقتربت من النار فذبحته عند الموقد وهو

تطلق صيحات مذعورة • وهنا تحركت الكتلة البنية الهائلة ، فانتصبت وجأرت ثم مشت على أربع : إنه دب هائل ، اقترب من النار وهو يتمايل ، حتى اذا وصل عند القدر ، استنشق الهواء بشخير هائل وخطه متجه صوبي ، فذعرت وأطلقت العنان لرجلي هاربا •

بقيت أركض مسافة طويلة حتى بلغت طرف الجزيرة ، أبحث فيه عن مخبأ • وما كدت استقر في مكان جانبي حتى سمعت نقشا في المياه • التفت فاذا بمركب آت من الشط الى الجزيرة ، فيه أربعة رجال قساة الملامح سود البشرة ، غجر بريون • عندها أحسست بأنني وقعت في كارثة كبيرة •

ترجل الاربعة ، وسحبوا المركب الى الرمل حيث خبأوه في مأمن تحت ساتر معدني كبير • ثم نشلوا منه ولدا في سني ، مكتفا وموثوقا ، حمله أحد الاربعة على كتفيه • تسنى لي أن أرى وجهه ، فاذا هو أدكن كوجوه خاطفيه ، مغمض العينين ، مزموم الشفتين ، كأنه من حجر • ودلف به الرجال بين الاشجار مختفين خلف الادغال •

كنت وحدي ، وكان الوقت ظهرا • أحسست بالجوع ، إنما لم أتجاسر على لمس ما معي من مؤونة • فأقل حركة مني تحمل إلي الخطر من احداث صوت أو كسر غصن ، فيتم اكتشافي واعتقالي وايثاقي •

طوال بعد الظهر ، لم اجرؤ على مغـادرة مخبأي ، وهو في حفرة صغيرة داخل صخرة ، تخفيها قمـام المناقع (نبات يكثر في المناقع والمواقع الرطبة) •

كنت كأنني منتظر أعجوبة تحدث : رجلا يطل على الشاطىء، صيادا على الارجح ••• إنما لم يظهر أحد ، وهبط مساء ، أذهلني لانني لم أشاهد ، من قبل ، مساء مثله : قاتما أزرق ، وصـوب الشرق شجرات هائلة معنقة من النجوم • منظر ملأني اندهاشا !!

ومع انطفاء شعاعات النهار الاخيرة ، كان الفلك الغائص في العتمة يضاء ، أكثر فأكثر ، بأشكال كبيرة متنوعة سحرية • انها كواكب مجهولة ، لم أعرف اسماءها الا في ما بعد ، الدب الاكبر، تلجوز ، أورون ، الديباران ••• واذ كنت أجهل أسـماءها ، رحت اتأمل التماعاتها الليلية وسط العتمة الهائلة • كانت تشتعل في البعيد بصمت ، وتنعكس أضواؤها متوهجة في النهر الصافي المياه اسودها • ومع هبوط الليل ، ازدادت سرعة انسياب النهـر صوب الجزيرة بشـكل مخيف • وعبثا كنـت أحاول من مخبأي اغماض عيني لعلي أنساه ، فلم اكن أنسى • كان صـوت هديره يأتيني ويزيد خوفي وقلقي ، فأشعر كم أنا صغير وضعيف •

كان يمكنني أن أمد قدمي فألمس المياه الباردة المنسابة تحت مخبأي • وكان خوفي يتزايد من المحيط الساكن حولي ، فقـررت الخروج ، وزحفـت مرتقيا الضفة • أمـلا بأن أسـمع صـوتا بشريا أو أرى احدا • ولكن ، من لي أن أنادي في هـذه العزلة

الرهيبة ؟ فالذين في الجزيرة ، يخطفون الاولاد • انهم بشر ، لكنهم أفظاظ • لهم كوخهم ، الحقير صحيح ، لكنه على الاقل يأويهم • وهم يشعلون فيه النار التي وهجها يضيء ما بين الاشجار ، قريبا من حيث أنا • تغرست أكثر ، فرأيت مسكنا • أغرتني الرؤية بالتقدم صوبه في هذا الليل الاليل مشدودا الى نار بشرية ، فتسللت بين الاشجار خلسة ، بدون تحريك الاغصان الواطئة حتى وصلت الى الكوخ ورحت أترقب وأراقب ، تحت شجرة شوكية الاوراق •

أمام النار ، كانت الفتاة تحرك الجمر ، والساحرة العجوز مقرفصة ، في يدها مغرفة ، تحرك في القدر الكبيرة طعاما غريبا ، الى جانبها الكلب مقعى يتأملها ويستنشق البخار المتصاعد ، مرهف الاذنين ، فيما الدب يتجول حولهما في الرواق • واذ الهواء متجه من المكان إليّ ، لا العكس ، لم يكن ممكنا للحيوانين أن يشما رائحتي • وكان ثلاثة رجال ، مفترشين الارض ، يأكلون غير بعيد عن النار ، فيماالرابع ، واقف وفي يده عصا ، والولد موثق بقدميه ويديه الى عمود قربهم • وبدا أن الرجل الواقف كان انتهى من جلد الولد ، الذي بدت آثار التعذيب على ظهرت العاري حتى حزامه • وكلما علت السنة النار ، بدت ثلاثة أثلام من الدم الاسود بين كتفيه • كان الرجل الواقف يوجه الى الولد عبارات قاسية عنيفة لم أفهمها لانها في لغة غريبة ، والولد ، بدون خوف يجيب جلاده بنبرة عنيفة مماثلة تكلفه جلدا اضافيا ، فيعود السوط ينهال من جديد على ظهره فيسكت • تأملته أكثر ، فاذا هو بهي

الطلعة . متين البنية ، اكبر مني قليلا ، وأقوى . انه فتى غجري بدون شك . وتحت آلام السياط ، كان يزم شفتيه ويغمض عينيه من شدة الوجع ، لكنه لا ينبس بصرخة واحدة .

بعد قليل ، تحرك الرجل الواقف ، فترك الولد بنزق وغضب. وانصرف يأكل ، حتى اذا انتهى ، نهض الرجال الاربعة ودخلوا الى الكوخ ،ليناموا على الارجح . ثم نهضت العجوز ، بدورها، وانسحبت وراءهم الى الداخل . فلم يبق في الرواق الا الكلب والدب والفتاة . أما الولد الموثق الى العمود ، فلم يكن فتح عينيه بعد . تقدم منه الدب ، واخذ يشمه . واذ لم يتحرك الولد تمدد الدب على قدميه ونام ، فيما ابتعد الكلب الى الغابة بحثا عن طرائده . ولم تلبث الفتاة ان استلقت هي الاخرى قرب النار ونامت .

عندها ، رفع الولد رأسه وفتح عينيه ، مجيلا نظره ببطء حوله . وما هي حتى وقعت عيناه عليّ ، فاجتاحتني رعشة خوف هائلة . لكنه لم يرني ، لانني مختبىء بين كتلة كثة من الاغصان والاوراق . سوى أن فكرة مفاجئة اخذتني : « لماذا لا أتقدم وأفك وثاقه ؟ » . إنما خانتني شجاعة أن أفعل ، خوفا من الذين يناموون في الداخل والساحرة ، والدب ، وهذه الفتاة التي ستستيقظ عند أقل حركة .

مع ذلك ، خرجت من مكاني وتقدمت بضع خطوات صوب الفرجة ، فرآني الولد ، إذ انعكس وهج الموقدة علي ، لكنه لم

ينفعل . التمعت عيناه ، وانفرجت شفتاه المزمومتان عن أسنانه البيضاء ، وأخذ يترقبني أتقدم صوبه ، كشبح ، بدون أن يبدي حركة .

وصلت الى العمود ، ورفعت يدي الى الحبل أفكه ، لكنني اصطدمت بشدة وثوق العقد المربوطة وكثافة التفافها ، فهمس لي الولد :

— **اسمع : قرب الموقد سكين كبيرة . اسمي كاتزو .**

ولكن الفتاة كانت نائمة قرب السكين . فقلت مرتجفا :

— ستستيقظ .

— وهل أنت خائف ؟

قال ذلك وأحنى رأسه أسفا فهزتني دلائل آلامه . عندها تقدمت من النار ، بخطى خفيفة كما في حلم . وصلت الى السكين لكنني رأيتها بين أصابع الفتاة النائمة . ففتحت الاصابع بتؤدة ، وسحبت السكين من بينها ، ففتحت عينيها وتفرست بي قائلة :

— آه !! إنني أحلم ..

ثم خبأت وجهها بيديها وأدارت لي ظهرها وعادت الى النوم. فأسرعت الى العمود وقطعت الحبال حول الولد ، فجأر عصفور الى قربنا واستيقظ الدب . واذ رآني ، استغرب ونهض بقفزة واحدة ، مدمدما ومادا صوبي خطمه الهائل . فبادرني الولد :

— لا تخف . سأكلمه .

ثم قــال :

ــ آكالاوو ... آكالاوو ... ريكشاه ... آرازادولس ..

وكان صوته ، هو يتلفظ بتلك العبارات ، ناعســا ، هادئا .

فهدأ الدب ، وعاد الى الارض فنام .

أكملت العقد الاخيرة من الحبل ، فتحرر الولد ، وخرجنا معا من المكان . كان الليل أليل ، بدون ضوء قمر ، حتى أنني كنــت حتما سأضيع لولا رفيقي ، الذي كان يمشي في العتمة كأن لــه عيني هر بري ثاقبتين ، وهو يمسك بيدي . فسألته :

ــ الى أين تقودني ؟

ــ (هامسا) الى المركب .

وحين بلغناه ، بادرني يهمس كذلك :

ــ هو ذا الخلاص .

فاعترفت له بخوفي :

ــ سنغرق حتما ، فالتيار قوي .

ــ واذا بقينا هنا سيقتلوننا حتما . لا تخش شــيئا . أنــا أعرف الميــاه هنا .

فسحبنا المركب بعناء شديد ، من الدغل حيث كان خبــأه الغجر . وركبت فيه ، فجره كاتزو الى المياه ، وأخذ يدفعه وأنــا معجب من قوته ، حتى اذا جرف التيار المركب ، ركــب كاتــزو بدوره ، قائلا :

ــ إبق أنت في المقدمة ، وأنا أقوده .

وبالفعل ، ركز مجدافا في الكوثل [مؤخر السفينة] ، وأخذ يقــود .

أخذنا تدريجيا نحاذي الجزيرة ، التي بدت لي كبيرة هائلة في الليل ، بأشجارها العالية وسط هــذه البقعة الشاسـعة مــن المياه الهادرة .

وبعد بعض المحاذاة ابتعدنا عن ضـفاف الجزيرة متوغلين صوب وسط النهر ، والجزيرة تبتعد عنا وتغرق في كثافة العتمة . سألت رفيقي ببعض الخجل :

— الى أين الان ؟

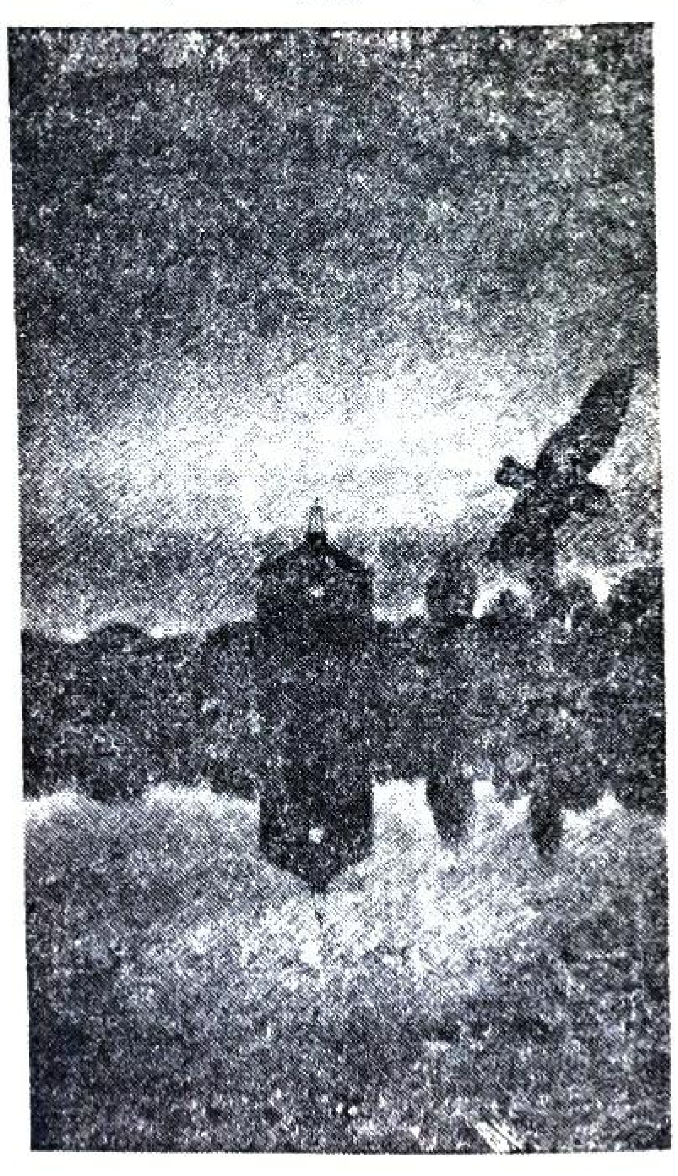
فلم يجب . كنت أراه بصعوبة لكثافة العتمة ، لكنني كنت اتبين ، من زفيره ، كم كان يجهد في التجذيف بكل قواه ، لشــدة ما كان تيار النهر قويا ويحتاج عضلات قويــة لغرز المجذاف فيه وتسيير المركب الى الموقع المرتجى .

الفصل الثالث

الميـــاه الراكـــدة

(المياه الراكدة)

قطعنا في النهر جزءا من الليل كبيرا ، لم أنم خلاله لحظة . كنت أراقب كاتزو الذي سلك وسط النهر ، وبدا يعرفه تماما ، بدليل أن تيارا سريعا فيه كان يجرفنا . وبعد وقت غير طويل ،



بدأت أتبين الاشجار على الضفة تقترب منا ، وسرعة المركب تخف

وهناك ، دخلنا في قناة بين جدارين أسـودين من النباتات العالية راحت تضيق حتى بتنا في مرورنا نلامس الاوراق الرطبة ، ثم عادت فأتسعت واذا بنا على صفحة من المياه وسيعة ، لم أتبينها مليا في العتم ، تباطأ عندها المركب حتى توقف نهائيا • وبعدها ربطناه ، سـألني كاتزو :

ـ ما اسـمك ؟

ـ پاسـكاليه •

ـ إطمئن الا يا پاسكاليه • أنت الان في مأمن • افعل مثلي • ونم • تصبح على خير •

وتمدد في أرض المركب ، ففعلت مثله ، ومـع أن الـواح المركب قاسية ، لم ألبث أن غفوت لشدة تعبي •

رغم أن ذلك حـدث منذ سـنوات طويلة ، وأنا اليوم في خريف العمر ، لا زلت أذكر تلك الايام في المياه ، بكامل تفاصيلها ، وكل عذوبتها من زمان الصبا • وغالبا ما تعود إلي تلك الذكريات ، فأرى ما رأيته ، صباحئذ ، حين استيقظت واكتشفت سحر عالم الميـاه •

فحين فتحت عيني ، كان الفجر ينشق من قلب الليل • رأيت السماء وسيعة ، رمادية ، مـع خيط وردي رفيـع يتهـادى بين غيوم رقيقة شفافة • وكان النسيم الصباحي ، في الاعالي ، ينسج شبكة أخرى من خيوط الابخرة الندية • ومن صوب مطلع الفجر ، كانت بخار فضي شاحب يرتفع بطيئا فوق النهر •

سمعت زقزقة عصفور ، سرعان ما أفاق نقيق ضفدعة مجاورة . وما هي هب رف من الاجنحة المبللة من بين القصب الكث ، فتصاعدت حولنا أصوات الحيوانات المائية قبل أن نراها: فاذا حفيف وضجيج وعسعسات ورفيف أجنحة وصعقة أخرى على صفحة المياه وتقاطر نقاط الماء من الطيور المرفرفة وهروب فأرة مذعورة الى الدغل ونقنقة طير في البعيد ووقع أحجار على ركام وزحف بطة تتسلل بين قضبان الاسل ، وأصوات مختلف الطيور تفيق وتنهض وتمارس رفرفاتها الصباحية الاولى قبل ان تطير .. كل هذه ، وسواها ، وأنا أنصت بكل انشداه وغبطة .

أحيانا ، كانت تهب نسمة صباحية من صوب الفجر ، على العالم السحري حولي ، عند هذه الامكنة ، فتنتعش النباتات المائية وتنهض من غفوتها الصامتة ، فتترنح أمام النسيم وتصدر عن ترنحها أصوات لذيذة .

وسط كل ذلك ، كان المركب جامدا لا يتحرك ، كأنه عوامة من الفلين ، خفيفة خفيفة تكاد لا تلامس صفحة المياه .

في قعر المركب كان رفيقي لا يزال ممددا على ظهره ، رأسه منقلب الى الوراء ، ويغط في نوم عميق ، متجمد الوجه بدكنته وخديه البارزين ، وأنفه الافطس وشفتيه المزمومتين كما لتحبسا النوم ، وجفنيه السوداوين الكبيرين اللذين يغطيان عينيه الغافيتين عميقا . وهكذا كان النوم يغلف روحه البرية الفتية .

وحين انزلقت اشعة الشمس من على رؤوس القصب الى هذا الوجه الغافي ، انفتحت عيناه سريعا • فابتسم اذ رآني ، وانفرجت من وجه الملامح القاسية فنتم بصوت هادىء :

ـ پاسـكاليه ••

ورددت له الابتسامة بمثلها • ها نحن بتنا صديقين • عندئذ ، بدأت فعلا مرحلة المياه الراكدة • وهكذا عشـنـا عشرة أيام في تلك الناحية المعزولة من النهر ، وأكد لي كاتزو :

ـ هنا نحن في مأمن لبعض الوقت ، لاحقا ، سنرى كيف نتوجـه •

وكانت تلك الناحية تتوغل صوب الجهة اليسرى من ضفة النهر (أي الجهة المقابلـة لمنزلـي) وتتجه صـوب الاراضـي المنخفضة التي تفصلنا عن ضفافها أدغال معقدة من النباتات المائية، كانت تحمينا بكل أمـان •

على طول تلك الناحية ، كان يعلو جدار سميك من الشجر الحرجي ـ المائي ، وبالقرب منا تعلو أنصـاب مـن البلسـان والجوالق(*) والقصـب العالي الكثيف بكل أنواعه : قصـب المستنقعات ، القصب الملون ، القصب ذي الاريج • وكانت أعناقه تنتصب من الطمي معنقة عالية وتشكل في غير مكان ، وسط المياه الزرقاء ، جزرا يتعذر بلوغها •

وهكذا كانت تلك الناحية مـن النهر تتفرع الى قنـوات لا تحصى ، بعضها متجه صـوب الارخبيل النباتي ولا يلبث أن

* الجوالق : نبات شائك من الفرثيات .

يختفي بين الخضرة الكثيفة ، وبعضها الاخر يمتد بين الصفصاف حتى يختفي في أعبابه . وكان المنظر من السحر بحيث لا يمكن الاحاطة بوصفه . مياهه ساكنة هادئة ، الا مويجة تتسلل أحيانا حاملة في عبها زهرة قطبة أو نفل .

كنت مأخوذا بكل ما حولي ، فيما كاتزو على العكس بدا غير مكترث ، قليل الكلام ، مما استغربته في البدء ثم الفته . فهو لم يتحدث أبدا عن اعتقاله ، في ما بعد ، ولا عن هروبنا ذاك .

صداقته كانت صموتة . وكانت تلك نقطة بيننا مشتركة ، لانني أنا الاخر أحب الصمت . انما لغير أسبابه هو ودوافعه . فهو يسكت ليفكر بأعمال مفيدة ، وجميع أفكاره تتجه الى قضاء الحاجات : الصيد ، ايجاد مرسى مؤات ، إعلاء شبكة في وجه الشمس تقينا لفحها ، البحث عن مأوى ، شي الطعام . واذا تكلم فبايجاز شديد وحركات مقتضبة مدروسة . كانت روحه مهندسة بدقة . وكنت أشعر بذلك واضحا ، وأحسها محصورة داخل جسمه الاسمر الادكن الذي يغلي بحياة صاخبة ودم ثائر انما بصدق ووفاء كبيرين .

أما أنا فكل ما بي يتناقض تماما معه الا في ما يتعلق بحب الصمت . لكنني أنا اذا أسكت ، فللذة الصمت ليس الا . سوى أن هذا الصمت لا يلغي وهج التفكير العابق بأفكار تائهة كيفما اتفق والتي في نهاية المطاف تعود فتدخل في كنف أحلامي وتأملاتي . فأنا لا أفكر بعمق ، بل أتتبع الصور الغريبة التي

تجتاحني أحيانا فأصمت حتى تعبر هذه الصور الى داخل نفسي •

قال لي كاتزو ببعض التوتر :

ـ كأنك تنام واقفا !

وكان بدا مستيقظا بعد نوم مريح من عناء أمس • ثم أردف:

ـ حين أنام ، أقوم بما يقتضيه النوم • أغمض عيني ولا أعود افكر بشيء ابدا • هذا مريح جدا • بينما حين أنت تنام ، لا تنفك تستدير وتتقلب وتهذي ، فتفسد هناءة نومك •

لم أجب إنه على حق • لكنني أكتوي بالهموم والقلق •

وهكذا مضى اليوم الاول من وجودنا معا في تلك الناحية ، جميلا هادئا لم أعرف مثله في حياتي • انه أجمل يوم في عمري •

أول ما فعلنا ، أننا اكتشفنا ما في المركب من كنوز كانت مخبأة في صندوقين مليئين ، الاول في المقدمة ويحوي أدوات الصيد الكاملة العدة والعدد ، والاخر خلفه يحوي الكثير من مؤونة الطعام ، التي سرعان ما وضعناها في أوعية حديدية لنحميها من الرطوبة •

ـ أحيانا كانوا يخرجون في النهر بعيدا عن الجزيرة • لذا كانوا يتمونون بكثرة •

كنت أود أن أعرف اكثر ، لكن كاتزو اكتفى بقول ذلك ، وسكت •

سررنا كثيرا باكتشاف ذاك الزاد الكافي ، من بن وسكر

وطحين وخضر ، وبهارات ، وزيت ، وما يكفي لاسبوع طويل على الاقل .

وكان في المركب أربعة مجاذيف ، وهيكله متين ومشدود جيدا ، نظيف الطلاء ، وفي مؤخرته دوارة للريح من النحاس . وقد فرحنا لها كثيرا لانها حوت اثنتين وثلاثين علامة ، وستة عشر اسما للرياح المختلفة . قال كاتزو :

— يجب أن نجلوها ونلمعها ، فهي نجاتنا الاكيدة .

تركنا كل أعمالنا وانصرفنا الى تلميعها ، فباتت تشع . ورأينا عليها بحروف كبيرة من ذهب ، اسم المركب : « المرعة »(*) .

وأكد كاتزو :

— لقد سرقوه . أعرف من أين . لكن المكان بعيد جدا من هنا .

قال ذلك وأشار الى أعلى النهر بعيدا حيث رأيت ، بصعوبة بين الضباب ، تلالا مختلفة . فسألت :

— هناك ؟

— هناك . بلاد جميلة جدا .

ورحت أفكر : « بلاد ؟ أية بلاد ؟ ومن أين جاء كاتزو الى هذه الجزيرة النائية ؟ ومن يكون هذا الفتى » ؟

(*) المرعة : طائر يشبه الدراج ، يقال انه لا يظهر إلا في المطر .

وبقي تفكيري محصورا في سكوتي . فلم أجرؤ على طرح أي سؤال من هذا النوع ، لاسيما أنه لم يطرح علي مثل هذه الاسئلة ، ولابد أنني أنا أيضا كنت له لغزا بوجودي في الجزيرة وظهوري المفاجىء . ومع ذلك لم يكن يبدي أي تساؤل حول ما جرى وما كان يدهشني أنا نفسي ، اذ كنت أشعر احيانا أنني في حلم لذيذ لا في حقيقة . فهل يعقل أن التقي هكذا ، بمحض الصدفة ، هذا الفتى الذي لا أعرف عنه الا اسمه ، في هذا المركب المختبىء وسط هذه الغابة من القصب عند هذه الناحية المنعزلة من النهر ؟ وهل في الحقيقة ، أم في الحلم ، أن يحصل كل ذلك ؟ وهل أنا فرح لذلك أم نادم ؟ الارجح أنني لست نادما ، ولا حتى حين أفكر بالعمة مارتين ، المسكينة التي لابد أنها الان تنتحب لفقداني وهي لا تدري ماذا تفعل .

كنت أتخيلها وأسمعها وأراها وأشفق عليها بدون كثير اقتناع ، لانني هنا في هذا المركب وفي هذا الصباح العابق بالشمس والنسيم أشعر أنني ممتلىء بالسعادة التي تغمر كل كياني ونفسي ، وان كنت لا أعرف ما هي النفس في تلك السن من العمر ، لكنني كنت أشعر أن سعادتي عندئذ أكبر من جسدي . وكنت أفكر :

« إنه ملاك الرب يحرك السعادة بي . فلاحسن استخدامها » .

كان اليوم الاول مرهقا بالعمل . فقد غيرنا المرسى ، بعدما اقترح كاتزو :

ــ في وسط هذه البقعة ، اذا مر أحد سيرانا . فلنتحرك من هنا .

وبعده ضربت من المجذاف ، توغلنا أكثر في أعباب القصب. ورسونا بين ثلاث جزر صغيرة مكتظة ، احداهـا قليلة النتوء ، وأرضها جافة قليلا ، نبتت عليها أعشاب طويلة وبعض الشجيرات، وعلى الاطراف عدد من غرسات سرة البحر(*) . قال كاتزو :

— هنا سنشعل نارنا . فثمة حطب جاف . هيا نحفر موقدنا .

وحفرناها ، وجاء كاتزو بحصبتين عريضـتين مسـطحتين ، وضعنا بينهما كومة من الخشب الجاف والقش . ثم قال كاتزو :

— والآن ، الى الصـيد .

وجهز خيطين وشصين . وكنت جاهلا فن الصيد فعلمني ، ثم أقعى عند طرف المركب وبادرني :

— أنظر الي كيف أفعل ، وافعل مثلي .

وراح الخيطان يتيهان باسترخاء وبدون حراك ، فيما الفلينة طافية على المياه الصافية القاتمة . كان كل شـيء جامدا حولنا ، لا نسمة بين القصب ولا تمويجة على صـفحة المياه . وحدهـا فراشة تائهة كانت تحوم ، ورديـة ذهبية ، على علو لا أكثر مـن اصبعين عن وجه المياه وتكاد تلامسه أحيانا . أتراها تشرب ؟

وكانت ظلال القصب والصفصاف تخفف من وهج الشمس، فلا يعود يتسلل الى تلك البقعة الا نور خفيف ينفلش على المكان

(*) الجوالق : نبات شائك من القرنيات .
(*) سـرة البحر : نباتات مائيـة مـن الخيميات .

ليزيد من عتمة البعيد الذي رحت أتساءل ان كان مأهولا .
وأحيانا ، في العتمة المتوغلة الى قعر المياه ، كان يتراءى شهب ذهبي سرعان ما يختفي ، لتحل مكانه فقاعات من الهواء طالعة من طحلب .

النتيجة : اصطاد كاتزو أربع سمكات بنفسج(**) وبيوضة واحدة(***) ، فيما لم أصطد أنا الا ڤيرونة واحدة .

ومنذ ذاك الوقت ، باتت حياتنا الثنائية مثيرة وحافلة . لم يعد يعوزنا الطعام ، بعدما بتنا نحن نصطاده ونقليه ولا نشتريه جاهزا باردا حضرته أيادي الاخرين .

ويبدو أن سحرا غريبا كامن في هذا الطعام ، إذ يجعل أكله يتحد أكثر بحياته اليومية مع الطبيعة . وهذا ما يفسر سرعة نشوء العلاقة بيننا وبين العناصر الطبيعية الاولى .

من هنا ، أعطي للانسان أن يكتشف المياه والتراب والهواء والنار .

فالمياه باتت أرضنا الطبيعية : نسكنها ومنها نصطاد قوتنا .
والتراب بات عنا بعيدا لكنه يحيط المياه ، حيث نحن ، بذراعين قويتين .

(* *) سمكات البنفسج : من فصيلة السلمونيات .
(* * *) البيوضة : سمكة نهرية شديدة بياض اللحم .
(* * * *) الڤيرونة : سمكة صغيرة من الشبوطيات تعيش في المجاري .

والهواء يحمل الينا الريح والعصافير والحشرات ، ويكون أحيانا هادئا يتهادى بالغيوم ، وأحيانا عاصفا غضـوبا ، وفي كلتا الحالتين يتخطر بين النور والظل .

والنار ، أخيرا ، هي التي تجعل الاطعمة صـالحة للاكل . النار التي تدفىء وتطمئن ، وتجعل للمائدة وقتا لا معنى له بدونها ، بدون التحلق حولها والتكلم خلالها والتسلية بعدهـا والنوم في نهايتها .

حتى ذاك اليوم ، لم أكن عرفت النار بعد ، النار الحقيقية ، النار في الهواء الطلق . كنت معتادا فقط على النار المحصورة ، في الموقدة أو الفرن ، النار المطيعة المطوعة التي تشـتعل من عـود الثقاب ولا تصلح لجميع أنواع الاشعالات ، بل هي مقننة ملجومة محددة الفائدة . بينما هنا ، في الهواء الطلق ، ووسط القصـب والصفصاف ، كانت النار فعلا هي النار ، نار المخيمات البـدائية القـديمة .

ولكن هذه النار لا تشتعل بسهولة . لذلك سحبنا صوانة البندقية ، انما لم يكن معنا صوفانة(*) فاستل كاتزو أليافا مـن عصويات يابسة تمكن بعد جهد بالغ من اضرام النار فيها ، ورحنا ننفخ فوقها بقوة ، كي نضرم النار التي بدونها لا يمكننا الحصول على قوتنا . وما هي حتى فرقعـت الالياف فأضـفنا اليها بعض الاعشاب اليابسة ما لبثت أن ساعدت على توقد النار . وهكـذا بات لدينا بعض الجمر الذي بواسطته تمكنا من وقد التنور بين

الحصبتين ، ثم وضعنا السمكات بعد لفها بأغصان الشمار(**) حتى ينش جلدها .

وأكلنا ، فكان ذلك من أشهى ما أكلت في حياتي . وهو يعبق بالجمر والشمار والزيت الطري . وشربنا الماء اللذيذ ، وغمسنا البسكويت بالقهوة .

ثم استلقينا ونمنا .

أما النار ، فحفظناها تحت قبة من الرماد الكثيف ، وبقيت تتأجج ببطء ، متنفسة من ثقب تركناه لها في الرماد . وهكذا بقيت حاضرة للتأجج من جديد حتى المساء ، حين أشعلناها من جديد . ومن حين الى آخر كان يخرج منها خيط دخان يحمل رائحة الرماد الطري ويتصاعد بين القصب .

لكننا كنا حريصين جدا على اخفاء الدخان عن الانظار ، لان اليابسة قربنا مليئة بالاخطار . فصحيح أن النباتات حولنا في تلك الناحية كانت تقينا ، انما الدخان اذا أفلت منا قد يشكل دليلا باتجاهنا يستقدم الخطر الاكيد . وصحيح ان ضفاف النهر لا تبدو مسكونة ، لكنها قد لا تخلو من عابر : صياد او متنزه .

وحفاظا على سلامتنا ، قررنا أن نكتشف تلك الناحية . حولنا كان التيار شبه معدوم ، والعمق كبيرا كما تبيناه من

(*) الصوفانة : مادة إسفنجية تستخدم في الجراحة .

(**) الشمار : جنس بقول من فصيلة الخيميات ، رائحته زكية ، اوراقه دقيقة وناعمة ، سيقانه مستديرة عارية . لحبوبه فوائد طبية ، ومنه الشمار السكري .

العصا الطويلة . وكانت الضفاف الترابية متينة تجانبها المياه بقوة فلا تتفتت . أكملنا في المياه وسط مساحات واسعة من الازهار المتنوعة المختلفة التي تعرفها مياه المستنقعات . وكنا أحيانا نبعد من طريقنا طحالب الماء وعرائس النيلوفر . ثم وصلنا الى قناة خضراء المياه زرقاويتها ، ومغطاة بالناردين الغديري ، وقد نبتت في وسطها أزهار مختلفة بيضاء ووردية وبنفسجية ، بعضها يمد سويقاته فوق المياه ، وبعضها الاخر غارق في الماء تماما . وكنا أحيانا نصادف أزهارا من ذوات الغلقتين الوحيدات التويجية ، فنندهش لمرآها ، أو نصادف سوسنات مائية قزحية جميلة .

اخيرا ترجلنا عند طبقة من الحصى ، وتوغلنا في البر قليلا ، فعلق كاتزو :

— هذا المكان صحراوي .

— يعني أننا في مأمن .

— ربما . ولكن الافضل أن نبقى متأهبين . اذا كان المكان خاليا فعلا فسنعرف .

— ومن تظن أن يكون فيه سوانا ؟

— لا أدري . ربما أحد مختبىء هنا في مكان ما .

ووصلنا الى سندرة عالية من تلك الاشجار الحرجية ، فتسلقناها ، وانقشع أمامنا كل المكان . واذا في أعلى النهر واد وسيع ، مكتظ بالاشجار التي تحجب الرؤية ، وفي البعيد جبل مرتفع لا يكاد يرى ، كأنه غيمة معلقة . قال كاتزو :

ــ لقد قطعنا سبعة أميال • وها نحن لم نعد نرى الجزيرة •
انجاز مهم •

ــ أتعتقد أنهم سيلاحقوننا بعد ؟

ــ ربما • انما يلزمهم مركب •

ــ مركبي لا يــزال هنــاك ، لكنه منخور وتدخله المياه فلا يصــلح •

ــ ربما أصــلحوه • أعرفهم تمــاما • ثلاثة أيام تكفيهم ليصلحوه •

وفكر قليلا ثم أضــاف :

ــ حتى الان ، يمكن أن تكون في مأمن ، ولاحقا سنتدبر امرنــا •

في سافلة النهر ، على نحو ربع ميل ، كانت الناحية حيث كنا ، وحيث تلتقي بالنهر الذي ينساب من هناك صــوب تــلال جبلية وصخور ، ويلتوي بعدها في منعرجات تتلألأ عليها أشــعة الشمس • ومن الجهة الاخرى ، تمتد مساحات من التراب الادكن مختلطة بالمياه أحيانا ، وتتصاعد منها أحيانا خيوط مــن البخــار المائي ، بعضها يتلألأ مذهبا وبعضها الاخر مزرورق ويتناهى في ظلال التلال •

أمامنا ، كان منبســط من أرض بائرة ، ليس فيها الا بعض باقات من جنبات الربــاط [مر شــرحها آنفا] ونباتــات الاثل [جنبات نحيلة الاغصان] • وكل ما حولها أجرد على كثير الحصى

لا كوخ ، لا دليل حياة ، عدا طيور هائمة قليلة . وكانت تلك البقعة تنتهي الى الجنوب عند قمة جرداء تحجب عنها الباقي من المكان . قال كاتزو :

ــ قد تكون هناك قرية .

ــ أين ؟

ــ في مكان ما ، خلف هذه القمة .

ــ وكيف تعرف ذلك ؟

ابتسم لحظة ثم أجاب :

ــ أحس بذلك . لا تسلني تفاصيل . ذات يوم ، سنذهب الى هذه القمة . وستتحقق بنفسك .

كنت معجبا من وثوق كاتزو الذي بدا لي يعرف كل شيء . ومن أعلى الشجرة كذلك ، كنا نرى بين الحصى خطاً من الاعشاب الطرية يسير حتى الناحية حيث كنا ، تتخلله في بعض الاماكن كتل من الاسل . فقال كاتزو :

ــ ها نحن على مقربة من نبع . هيا بنا نراه .

وذهبنا اليه . فلم نجد تحت العشب العالي إلا أرضا رطبة. عدنا الى المركب لنأخذ منه معولا ، ثم رجعنا وغرزناه حيثما أشار كاتزو ، فانبجست المياه ، وبقينا نحفر حتى تكونت لدينا بركة صغيرة ، تخلل ترابها بعض الرمل ، فبنينا للحفرة سدا وغرزنا فيها قصبة . انتظرنا قليلا فبقيت القصبة جافة ، ونحن نتحرق للنتيجة . وبعد لحظات ، ظهرت على طرف القصبة نقطة ماء صغيرة كبرت حتى انسابت ساقطة ، وتلتها نقطة أخرى ، ثم ما لبثت المياه

أن انبخست عند أسفل القصبة في خيط رفيع • وفي نحو ساعة من الزمن ، تجمع في تلك الحفرة نحو كوب مـاء صـاف ، فانبطحنا أرضا وشرب كل منا جرعة ، أحسسنا معها بطعم الطين الطري وجذور البيلسان • ثم ملأت زجاجة حملتها معي ، وعدنا الى المركب الذي أقلنا الى جزيرتنا الصغيرة قبل هبوط الليل •

أعدنا إشعال النار بكل حذر لان الاشجار فوقنا كثيفة ، ويمكن أن تعكس أوراقها وهج النار بسرعة • وازداد نقيق الضفادع معلنا هبوط الليل •

وأمضينا بعدها ليلة هادئة •

هكذا مرت الايام اللاحقة كاليوم الاول ، والليالي اللاحقة كالليلة الاولى • كان فينا وحولنا هدوء تام • وبعد صحوة الساعات الاولى من الفرح بالمكان ، رصدنا حياتنا على الحياة في هذه المياه الراكدة • بتنا نركز كل تحركاتنا على الشمس والريح، على الجوع والراحة • وكان فينا سلام داخلي جميل •

كل ما كنا نقوم به ، يستغرق وقتا طويلا ، حتى كنا نجد الوقت قصيرا • ففي المياه الراكدة ، تتباطأ كل التحركات ، وتبطوء جدا سرعة التنقل بين جزيرة وأخرى • هكذا كنا نعيش بدون توتر ، ونتمتع بأيام طويلة كنا نحبها لطولها ورتابتها ، في ذاك الاطار الذي يتخدر فيه الماء والهواء فيرقدان • لكنني كنت أتخيل دائما أن وراء رقادهما الافا من الحيوات غير المنظورة • ومن يومها لم يعد يفارقني ذلك التفكير •

أحياناً ، وفي النهار بشكل خاص ، كانت تتحرك أنسجة الماء والهواء . وما ان تمضي النسائم الصباحية ، حتى يعودا الى السكينة من جديد .

في نحو الحادية عشرة ، كان كاتزو يقوم بعمليات غطس عمودية على الطحالب العميقة ، فيما أظل أراقب جسمه الادكن يتنقل بين تلك الاعشاب الخطرة تحت الماء . كان يتحرك بكل راحة ، كأنه مخلوق للعيش في الماء لا على اليابسة . وأحياناً كنت أتصوره حيواناً بحرياً يعيش تحت الماء ، وأتعجب لدى رؤيته يشق الماء ويخرج ، مغمض العينين ، أدكن الوجه تتقسق المياه من شعره الطويل ، فيتقدم من المركب حيث أكون بانتظاره لانني لا أتمكن من اللحاق به . ويروح يتجفف على الضفة ، في وضح الشمس ، حتى تتشف بشرته الدكناء تماما . وكنت أجهل السباحة فلا أرافقه ، وهو أحياناً يتوغل داخل القنوات فأقلق لغيابه وأتساءل :

— ماذا أفعل اذا لم يعد ، أو اذا غرق ؟!

كان المركب ثقيلا جدا كي أتحرك به لوحدي ، وأنا لا خبرة لي مطلقا بهذه الحياة البرية في الطبيعة ، فيما هو بدا معتادا تماما عليها .

فترات بعد الظهر كانت حارة ، لذا كنا ننام في اكثرها ، لا يقلق هدوءها إلا مرور حشرة أو قفزة سمكة شبوطية . لذا كانت قيلولاتنا هانئة ، تحت ظلال القصبات والاشجار القصيرة .

ونشعر بالامان من أي هجوم مفاجيء على الضفة ، فنأكل بعض ما معنا ونحن نتأمل هبوط الليل •

وفي الليل ، الممتلىء نجوما زائغة ، قلما كان كاتزو يتكلم • ذات ليلة ، وكانا ظلانا متقاربين ، قال لي :

ــ ثمة حتما ثعلب ماء في الجوار •

ــ أيــن ؟

أحيانا كنا نجر المركب الى نفق من الاشــجار والنباتــات الخضراء ، حيث الصفصاف الحاني وشجر يشبه الزيتون ، فنربطه الى جذع صفصافة ، ونسيح حتى المساء متأملين طيران الفراشات على صفحة المياه • كنا نتكلم قليلا ، ولم يكن كاتزو يكسر هذا الصــمت الا ليقول لي :

ــ باسكاليه ، انتبه • ثمة حيوان يقترب •

وكنا نرى تحركا بين النباتات والاشجار ، لكننا لم نر مرة أي حيوان • كان يبقى غير منظور ، أو نحس بخطمه بين القصب ، فنرى جســما أصــهب ذا عينين رهيبتين ، ونســتبينه فاذا هو سرعوب(*) جاء يشرب ثم عاد يختفي في الدغل •

أحيانا ، وسط هذا الصمت ، كان جرذون يظهر بحثا عــن

(*) السرعوب : حيوان من الفصيلة السرعوبية ورتبة اللواحم ، يقال لــه أيضا «ابن عرس» •

بنعام ، ويتلفت خائفا ثم ينسحب ، وأحيانا أخـرى كانت تطـل حذفة ** او غرة *** فتعبر القناة وتختفي بين الاسل تاركة وراءها .

وحين يجيء المساء من اليابسة ليهبط على عزلتنا ، تستحيل المياه وردية وذهبية وبرتقالية ، وتستحيل الاوراق صهباء تنعكس بنسوجات ألوانها على صفحة القناة الملساء . وعندها ، نسيح في وساعة المياه لنقضي الليل ، فنلقي مرساة صـغيرة من ثلاثة أمتار

— بين المائهات هنا . غالبا ما أسمع حركته حين يأتي ليشرب.

— في الليل دائما ؟

— **نعم . وفي سـاعة متأخرة .**

— وتكون أنت صاحيا ؟

— بل هو الذي يوقظني حين يضرب الماء بجناحيه .

— كم أتمنى رؤيته .

— لا يمكنك أن تراه الا اذا كان القمر ساطعا .

وبالفعل لم يكن القمـر ليلتئذ الا هلالا ناحلا عنـد الافق ما لبث ان اختفى . فأكثر ليالينا كانت خاليـة سوى من النجوم تتعشع في قبة الفلك بأذنابها المتلألئة المتداخلة التي تنعكس حولنا على نقاط المياه ، فكأننا بين سمائين هادئين ، خارج دائرة المكان والزمان ، لا يوقظنا من حلمهما الا نقيق سرب من الضفادع .

وكلما يتقدم الليل يزداد النقيق فيمتلىء بأصدائه الليل في تناغم ، واذا بالعتمة تتجمهر نباتات ومياها وضـفافا وأشـجارا

(**) الحذفة : طائر مائي من فصيلة البط .

(***) الغـرة : طير من طوال الساق .

فستحيل جوقة من أصوات غريبة ساحرة • ومن حين لاخر ، تحمحم بطة بين القصب ، أو تنعق بومة على حورة ، أو يخربش غرير(*) في دغل ، أو ينزلق دلق(**) من غصن الى غصن محدثا وراءه ارتعاشا في الاوراق ، أو يتيه في العتمة ثعلب باحث عن طعام •

مرة ، قال لي كاتزو :

— الثعلب حيوان حزين • دائم التفكير •

— وهل هو حزين لانه دائم التفكير ؟

لم يوضح لي كاتزو بل اكتفى بالقول :

— لقد فقد فردوسه • هكذا يروي المسنون عندنا ، وهم أدرى • انما •• اسمع أنصت جيدا ••

ورحت أنصت ، فاذا بطير رائع الصوت يغرد على الضفة ، تماما في الوقت نفسه وكل ليلة وعلى غصن الدردارة نفسها ، فكأنه نداء ليلي تتجاوب معه الناحية كلها بمياهها ونباتاتها • كان الثعلب يتجمد مكانه ، ونحن نحبس أنفاسنا ، لشدة ما كان شجيا تغريد ذاك العندليب في تلك الليلة من أواخر نيسان • كنا ننام على تغريده ويبقى نومنا خفيفا فنستيقظ مرة او اثنتين قبل طلوع الفجر •

وغالبا ما كنا نسمع ، في أول يقظتنا ، ذاك العندليب ما زال

(*) الغرير : حيوان بين الكلب والسنور، قصير القوائم أغبر اللون .

(**) الدلق : حيوان يقرب من السنور في الحجم ، أصفر اللون ، بطنه وعنقه يميلان الى البياض .

يشدو ، انما ببعض البطء كما لو انه في نهايات تغريده ، وكنـا . من طريقة شدوه في الليل وسط الصمت فوق المياه الغارقـه في العتم ، نعرف أن جميع الحيوانات البحيرية تغط في نومها العميق، فيهنأ نومنا أكثر .

وعند الفجر ، نتطلع فلا نرى غير طير واحد كبير ، في عب شجرة كثيفة ، على نحو خمسين مترا من المركب . ولا يلبث أن ينزل فينقر الماء بمنقاره الطويل وريشه الرمادي ، فنحبس أنفاسنا من جديد كي لا نجفله .

وبعد قليل ، يظهر رف البلقشات(***) من احدى فتحـات القناة ، كأنه أسطول صباحي يشق طريقه وسط ضباب شـفاف على وجه الماء ، وكأن ظهوره يعلن طلوع الصـباح . وعند نحو عشرين مترا من الضفة يتوقف الرف كله ، يتشـرب من أشـعة الشمس الاولى ، ثم يدلف في نفق من الاوراق الخضـراء يغيب بينها الى الظلال الطرية . وعندها ، يتفرق السـرب دليل ابتداء النهـار .

هكذا كانت حياتنا اليومية ، غارقة في النسيان واللامبالاة. أحيانا يكون الهدوء تاما حتى يكاد يضغط علينا بصمته ، فنروح نختلق أخطارا وهمية .

مرة ، قال كاتزو بعد تفكير عميق :

— لا نعرف من هم سكان هذه المنطقة . فثمة حتما سكان في الجـوار .

(***) البلقشة : طير مـن فصيلة البطيـات .

— قد يكونون متوحشين .

قلتها ، وأحسست برعشة لذيذة تجري في مفاصلي . أيكونون فعلا «متوحشين» ؟

هز كاتزو برأسه وأشار الى الضفة اليسرى من حيث نحن . وهي مكتظة وكثيفة ، وأردف :

— هذه الضفة تخيفني ! هل تتصور أن نقع في قبضة قاطعي الرؤوس ، أولئك السود آكلي لحم البشر ؟ ليس ما يستبعد ذلك، وسط هذا الاكتظاظ من كل الجهات !

عندها شعرت بخوف أكيد ، لكنه لذيذ ، لاننا حين نخترع لانفسنا خوفا باختراع خطر وهمي ، نعرف أن لا خطر حقيقيا ولو اعتراننا الخوف . وهذا شعور نادر وطريف .

ذات صباح ، بادرني كاتزو :

— پاسكاليه ، علينا أن نستنبط لنا أسلحة .

وقام بتنجير قوس أطول منه ، ثم أعددنا له أسهما من القصب . وهكذا ، كلما سمعنا خشخشة في دغل ، رمينا مصدرها بسهم .

ولكن حيازة السلاح تغري باستعماله حتى في غير حالات الصيد أو الدفاع عن النفس . وذلك يستدعي دائما هدفا نخترعه لنرميه . وليس ألذ اغراء من العصفور هدفا للرماية ، مع الاسف . واذ كانت الطيور تفد حولنا بالمئات ، واثقة مطمئنة ،

مؤالفة وجودنا المسالم ، كان كاتزو أحيانا يرمي بطة برية على خمس عشرة خطوة من المركب ، وهو طير جميل جدا يكون متبخترا على وجه المياه ، أو مغمسا فيها ريشه الجميل أو حتى نائما بدون قلق أو خوف ، ومنقاره متغلغل تحت جناحه . كان كاتزو ، باصبع عصبية ، يشد الحبل مصوبا على الطير ، ثم يفلت السهم باتجاهه فيرميه .

عند المساء ، كنا نذهب أحيانا نتربص قرب النبع . وكان كاتزو يقول لي :

— فلننتظر هبوط الليل . ستخرج الحيوانات البرية لتشرب. أحيانا في النهار أرى معالم مخالبها .

وأشار لي الى بعضها فارتعشنا من الخوف . لكننا لم نر مرة أيا من تلك الحيوانات ، بل كنا نتخيله أحيانا وسط الارض البائرة ، فيبدو لنا مخيفا ونبقى ساكتين مترقبين . ويؤكد لي كاتزو :

— أنا واثق من أنني سمعت خطاه . لم أكن أحلم .

— وأنا رأيت أذنيه تتحركان .

تلك الليلة لم نكن ، فعلا ، نتخيل . صحيح أن الرؤية كانت ضعيفة بل شبه معدومة ، لكننا رأينا شكلا ، على مقربة منا ، وسط البراح [الارض البائرة] . كان يظهر ويختفي سريعا . واذا كنت فعلا لم أر أذنيه تتحركان هذه المرة ، كما كنت أكدت لكاتزو ، فقد خيل لي أنني أراه كله ، مما دفعني الى القول :

ـ كاتزو ، أرى أنه حيوان هائل متوحش .

عدنا الى المركب ، وتناقشنا بأمر الحيوان ، فبات يكبر في واقعنا ويتخذ جسما هائلا ذا ذنب كبير (لماذا الذنب ؟ لا أدري . ربما تأثرا بالاسود والنمور) ومن فصيلة الضواري . قلت لكاتزو:

ـ مع أننا لم نر التماع عينيه .

ـ يغمضهما ليخفي عنا التماعهما فتنطلي الحيلة علينا .

ـ أتعتقد ذلك ؟

تساءلت وقد أثارتني فكرة الحيلة ، فطمأنني كاتزو :

ـ هذه حيوانات تولد معها الحيلة .

وتوغلنا في النقاش لعلنا نصل الى اكتشاف طبيعة هذا الحيوان وفصيلته واسمه . لم نكن نرغب في أن يكون كلبا أو ذئبا . فطالما تخيلناه وحشا حقيقيا ، من غير المنطقي أن نجعله حيوانا أليفا من كل الناس . واذ لم نستطع تحديد هويته ، فطرأت لكاتزو فكرة اعجبتني إذ قال لي :

ـ إنه دب . « دب نهري » . سنسميه هكذا . ففي هذه المنطقة « دببة نهرية » . ألم تر في حياتك « دبا نهريا » ؟

بدا اختراعنا الوهمي بسيطا : انه اذا « دب نهري » . « دب نهري » كبير ، خطر ، تائه ضائع شرس ، يغضب لاقل حركة فيقفز الى فريسته بضراوة ، بضراوة قفزة لا يأتيها النمر المتوحش . وهذا «الدب» يضيف كل تلك الناحية من الارض البائرة التي لا يعيش فيها حيوان الا هو ، ولا ينبت فيها عشب أو

نبات . ذلك أن « الدب النهري » يحب الوحدة ويسيطر على البرية القاحلة قرب الانهار ، وحين يتقدم به العمر يسي أكثر شراسة وضراوة حتى ليجفل منه أعتى الوحوش . و « الدب النهري » لا يجدي صيده ، لان جلده قاس جدا ولانه اذا جرح يغدو خصما رهيبا . وهو لا يخرج تائها الا في الليل ، لذا يصعب تحديده في الظلمة . وعلى أي حال ، فهو بات من الحيوانات التي تنقرض ، وقد يكون هذا الذي هنا آخر « دب نهري » في هذا العصر .

ومع هذا «الاختراع» الوهمي لحيوان وهمي ، شعرنا بالخوف والمرح معا . وقلت لرفيقي وأنا محمول بغبطة الاكتشاف :

— كاتزو ، علينا أن نعود الى الترقب والرصد .

في الليلة التالية ، عدنا الى الترصد من جديد ، على أعلى شجرة في الجوار . فقد قال گاتزو :

— « الدب النهري » لا يتسلق الشجر .

وبقينا معلقين ، على الغصن العالي لاحدى الدردارات ، طوال الهزيع الاول من الليل . لكن « الدب النهري » لم يأت . قال گاتزو :

— لقد كشفنا .

ذلك أن لـ « الدب النهري » حاسة شم غريبة .

لكنه بعد يومين أخافنا جديا • فنحو العاشرة ، سمعنا جلبة أشجار تتكسر في الغابة الصغيرة المجاورة • وكانت أوراق الشجر تهتز ، والاغصان تتحرك بقوة ، فيما صفحة المياه تتماوج بكل عنف • وما هي حتى لهث الحيوان بقوة وشخر وجأر • فهمس لي گاتزو وهو منبطح على بطنه في أرض المركب :

— إنه يستحم • إياك أن تتحرك • يقال إنه يسبح •

عندها شعرت بخوف حقيقي •

لكن الحيوان لم يظهر ، بل اختفى واختفى معه كل حس او صوت •

بقينا صامتين الى أن غلبني النعاس ، فيما گاتزو بقي سهران يراقب الشاطىء والضفاف حتى الصباح •

منذ ذلك اليوم ، بدأ القلق يساورنا بجد • وكان ذاك شعورا غريبا : بدأنا نخاف أن نكون فعلا خائفين • ذلك أن الحركة الليلية تلك ، كنا سمعناها فعلا لا توهما • يعني أن حيوانا جاء فعلا يقلق صمت تلك الناحية التي كنا اعتقدنا أن « الدب النهري » وحده موجود فيها بين كل الحيوانات • مع ذلك بقينا على اقتناعنا بأن هذا « دب نهري » مع التساؤل الذي لم نجد له جوابا : و ••• ماذا إذا لم يكن « دبا نهريا » ؟ أي اذا كان حيوانا متوحشا حقيقيا ؟؟

اقترح گاتزو :

— الافضل أن نغير هذا المرسى •

عند المساء ، تسللنا بحذر . توقفنا بحذر . توقفنا قليلا في تلك الجزيرة الصغيرة ، حيث حملنا بعض الحطب الجاف ومعه جذوة النار التي حصرناها في وعاء فخاري وضعناه تحت المقعد عند قعر المركب .

وبعد إلقاء نظرة وداعية على مرسانا ذاك ، غادرنا تلك الناحية الظليلة . واتجهنا في القناة التي مع توغلنا راحت ضفتاها تضيقان حتى باتت نفقا من الاوراق الكثيفة الغريبة الضائعة وسط أرخبيل الجزر الصغيرة بين الصفصاف الحاني من كل نوع وكنا نحاذي في مرورنا القصبات الفارعة ونلامسها فترتج بينها أعشاش العصافير من أبي الرؤوس والطيور المائية من فصيلة البط ، وجميعها بمستوى الماء . وكنا كلما تقدمنا أصبح النفق أكثر ظلمة ، انما بدا في آخره ضوء بعيد . كان تقدمنا بطيئا وصامتا ، لا يعكره الا مرور الاوراق على جبهتينا او وجهينا ، ومرور الحشرات الطائرة حولنا أو بيننا أسرابا ودوائر . وأخيرا أطللنا على مساحة أخرى مسورة تماما بالقصب والاشجار .

كانت تلك ، بحيرة غافية يشعشع نور الغروب في آخر خيوطه على صفحة مياهها الهادئة التي تحرسها أشجار من الحور متلازة حتى لتكون أوراقها المتلاصقة المتجانبة سياجا لا منفذ فيه. من تلك الحورات ما كان مع طرف المياه ، ومنها ما كان أبعد ، يسد الافق الذي تنسحب منه شعاعات الشمس الاخيرة . أما الشاطىء فكان صخريا ، ومن أعلى جرفه ظهرت غابة كثيفة من

السنديان الاخضر ، انعكست رؤوسها في المياه الصـافية الهادئه التي تحيط بجزيرة صغيرة جدا قائمة في وسطها •

كانت تلك الجزيرة مكتظة بأشجار السرو العتيق • وتقدم بنا المركب ببطء صوب الجزيرة التي بدت مسكن الليل والسكوت إذ لم يكن يصدر عنها أي صوت ، رغم ما فيها وحولها من نباتات وأشجار وميـاه •

بعد قليل توقف المركب بين الجزيـرة والضـفة ، وأرخينا المرساة وسط مشهد الجزيرة وصمتها اللذين كانا يثيراننا فعلا ، حتى أننا تناولنا عشاءنا بدون أن يقول أحدنا كلمة واحدة •

لم أنم جيدا تلك الليلة • فلشدة ما كان السـكون مخيما وسكوتنا كاملا ، راحت تتراءى لنا تموجات حياة لا تحديد لها : أصوات غامضة أو تنهدات ، وفي البعيد همس غريب ، كأنه خطو متردد على الرمل ، أو نفس شخص خفي ، أو كأن تحـت صفحة هذه المرآة الهادئة تحركا سحريا للمياه السرية •

نحو منتصف الليل ، سمعنا وقع خطوات على الضفة ، وكان ذاك أكيدا وجليا ، من صوب الجرف الصخري •

في اليوم التالي رحنا نكتشف الجزيرة كلها • كان فيها طريق يقود الى كنيسة في وسطهـا ، تفتت حجارتها بفعـل الامطـار والرياح فبدت هرمة عتيقة ، ووراءها قبران من الحجارة غائصان بين الاعشاب البرية تحت أشـجار السـرو العالي الـذي تتغرز جذوره حتى المياه العميقة •

بعد الجزيرة ، رحنا نكتشف الجرف الصخري وغابة السنديان الاخضر بدون أن نتجاسر على التوغل أكثر داخل تلك الناحية ، بل توقفنا عند نهاية الارض البائرة . لم نجد أحدا ، ولا منزلا . في السماء ، فوقنا ، رأينا صقرا كبيرا يحلق منفردا .

قلت لگاتزو :

ـ هذه البلاد حزينة .

ـ معك حق . ليست بلادا كسائر البلدان . فيها آرواح ..

ـ من قال لك ؟

ـ ألم تسمع مثلي ليلة أمس ؟ جاءت روح تتحرك قربنا .

ـ صحيح .. بلى .. سمعت .. وهل أنت تعرف ما هي الروح ؟

ـ كلا . لكنني أراها ، اذا اختبأنا هذه الليلة يمكن أن نراها . فقد ترجع الليلة حتما الى المكان نفسه .

أحسست بخفقان قلبي ازداد . فأردف گاتزو :

ـ نحو العاشرة يغيب القمر فتزداد العتمة . وعند أسفل الجرف ثقب كبير نقف عنده ونتربص .

خفت كثيرا حتى بدا عليّ ذلك ، فبادرني :

ـ لماذا تخاف . يجب أن نرى هذا المشهد . كلانا رجل .

ولم أجب ، أردف قائلا :

ـ اذا كنت خائفا ، أذهب وحدي .

خجلت من ذلك ، لكن خوفي ازداد حتى قلت لگاتزو :

ـ إن ما تفعله خطر . وسنستحق عليه العقاب .

هز بكتفيه غير مبالي ، وظل صامتا حتى اضمحل القمر • عندئذ ، خلع ثيابه ووضعها على رأسه ، ثم انزلق في المياه وسبح حتى الجرف ، وأنا على الضفة اتأمله ، حتى اذا بلغ الضفة الاخرى أعاد ارتداء ثيابه واختفى •

بقي المركب عند الجزيرة ، حيث لا يمكن رؤيته عن الضفة بسبب اختفائه خلف ظلال الاشجار • جلست على المقعد عند جؤجؤه أراقب كل الشاطىء • مر وقت ولم ألمح شيئا • طال انتظاري ولم أنعس ، لان فضولي كان يدفعني الى الانتظار اكثر لعلي أرى شيئا •

نحو منتصف الليل ، سمعت ما كنت سمعته في الليلة السابقة: حركة على طول الشاطىء ، دخلت في دغل ونزلت حتى الرمل • ولمحت علامة بيضاء صغيرة ، ترددت قليلا ثم اقتربت من الماء • عندها طاش الدم في رأسي ، ففككت الحبل من المرسى ودفعت به مستعينا بالعصا ، فأنساب على صفحة المياه المظلمة وأنا افكر : « العتمة شديدة فلن تراني الروح • أنا رأيتها لانها بيضاء مضيئة في عتم أسود » • لكنني رغم بياضها لم أتمكن من التفرس بها جيدا • هل يكون لها شكل ؟ رحت أتقدم صوبها ، ورغم الظلمة• وفجأة ، بدرت منها صرخة خفيفة إذ كنت اقتربت منها كثيرا • وسمعتها تقول : « رباه ! هذه روح ! » فاستغربت أن تعتبرني هي روحا ، واستعدت هدوئي سائلا :

ـ وأنت ، ما اسمك ؟

ففرت الروح هاربة ، لكن گاتزو خرج فجأة من مخبأه وقبض عليها صارخا :

— أمسكت بها . انها فتاة .

وكنت وصلت الى الضفة عند گاتزو . كان يمسك الفتاة وهي لا تقاوم . بدت من سننا وان كنا لا نراها بوضوح في تلك العتمة الشديدة . وراح گاتزو يمطرها بالاسئلة :

— ما تفعلين هنا ؟ من أنت ؟ أين تسكنين ؟

لكنها لم تكن تجيب ، ولابدت خائفة منا . خفف گاتزو من لهجته مردفا :

— لا تخافي ، لن نؤذيك .

وأفلت لها قبضتيها فقالت :

— أنا أعرفكما . أنتما اللذان كانا عند تلك الناحية المعزولة من النهر قبل أسبوع . البحث عنكما جار في جميع القرى .

أصابني صقيع الخوف ، واستفهم گاتزو بكل هدوء :

— صحيح ؟ ومن يبحث عنا ؟

— عندنا ، في پييروييه ، الناطور .

— وكيف يبحث عنا ؟

— يضرب على الطبل الكبير في الحادية عشرة قبل ظهر كل يوم ويعلن ذلك بصوت عال ، ثم يعود الى منزله . وهكذا منذ أربعة أيام ، حتى علم الجميع في القرية بأمركما .

ــ إذاً يمكننا النوم باطمئنان • وأنت ، هل ستشين بنا ؟

ــ أبدا • لكن شخصا آخر يبحث عنكما أيضا • وهو قادر على اكتشافكما •

هنا بدا على گاتزو بعض القلق ، فاستفهم :

ــ وكيف هو ؟

ــ كبير الجسم أ سود ، وصل من النهر على قارب صـغير منخور •

ففكرت سـريعا بكل هلع :

ــ لقد هلكنا • إنه بارگابو •

وأكملت الفتاة :

ــ وهو هنا منذ يوم أمس • وصل في الوقت نفسه مع المهرج

سأل گاتزو باضطراب :

ــ أي مهرج ؟

ــ مهرج المسرح • فغداً الاحتفال السـنوي تحت شـجرة الدردار كالعادة ، ليلا بعد العشاء • هو نفسه يأتي كل عام • العام الماضي جاء معه مهرج آخر • هذا العام جاء لوحده ، وهو عجوز هـرم •

وسكتت ، وسكت معها گاتزو • ثم قال فجأة :

ــ يجب أن نعود •

رافقناها حتى حدود الغابة ، وهــي تتقدمنا وعيناها تثقبان الليل كعيني گاتزو • ونظرا لكثافة الاشجار وما تحدثه من ظلمــة شديدة ، استغرب گاتزوا • ونظرا لكثافة الاشجار وما تحدثه من ظلمة شديدة ، استغرب گاتزو نفسه كيف هذه الفتاة لاتخاف • فســألها :

ــ لماذا تأتين ليلا الى ضفاف المياه ؟

لــم تجــب ، فواصــل گاتزو سأسئلته بألحاح • وكان في صوته من الحنان ما جعلها ، أخيرا ، تتكلم •• واذا بنــا نفهم أن أهلها جميعهم ماتوا • وكانت تعمل خادمة لدى عجوزين طيبين ، ليس لهما إلا حفيد وحيد في الثانية عشرة من عمره • وذات يوم ذهب الثلاثة في رحلة طويلة ، وتركوها لوحدها في المنــزل مــع خادمة ثرثارة تنهرها دائما بعنف • وكان الثلاثة بعيدين ، في بلاد نائية ، وحزينين لهذا البعاد وكذلك هي حزينة • لكنهم ، لسبب مجهول ، لم يعودوا يتجاســرون على العودة الى منزلهم • لذلك هي تأتي ، ليلا ، فتصلي حتى يعيد الله الثلاثة الى القــرية حيث ينتظرهم الجميع •

أثرت بنا هذه القصة وكانت الفتاة متأثرة جدا وهي ترويها ، وما بلغــت نهايتها حتى أجهشــت بالبكاء • وتأثــر گاتزو كثيرا فســألها :

ــ ما ســمك يا صغيرتي ؟

ــ هياسينت • [ومعناها ياقوتة] •

وأكملت تبكي •

في تلك اللحظات ، سمعنا في الغابة وقع خطوات ، تبين أنها خطوات حيوان . خفت وقلت لگاتزو :

ــ هذا هو « الدب النهري » .

فقالت الفتاة بكل هدوء :

ــ لا . بل هو حماري . جاء يأخذني .

وبالفعل رأينا في الظلمة طيفا ثم خــرج الحمــار الى بعض الضوء ، فبادرته الفتاة :

ــ تعال ، تعال . تقدم على مهل . يجب ان لا تخيفهم ، هذه المــرة ..

وتقدم الحمار فبدا عليه لباس لائق . بادرتنا الفتاة :

ــ هذا أجمل حمار في القرية .

ربما كانت تمزح ، لكنها عادت الى ملامح الحزن وقالت :

ــ غدا لن أعود الى هنا ، لانني أريد أن أتفرج على المهــرج الذي سيلعب للاولاد وسط ساحة القرية ، في ضوء القمر .

بقينا صامتين ، فامتطت الفتاة حمارها وتوغلت به في عتمة الغــابة .

اليوم التالي كان بطيئــا ، وأمضيناه بدون تسلية ، بينمــا كنا نتشغل أكثر في الايام السابقة ، فنراقب عصفورا أو ذبابة أو ضفدعةاو فراشة.كان گاتزو منتحيا جانبا،يجيبني بايجاز شديد وعاد اليه من جديد ذاك الوجه العابس المقطب الــذي لم أكن أحبه ،

والذي يعطيه مزاجا منفردا يبعده عني • شعرت بالحزن وبقيت صامتا أنا أيضا •

في أواخر بعد الظهر ، لم أعد استطيع الاحتمال ، فقفزت من المركب الى البر ، ورحت في نزهة •

تحت الصنوبر ، كان الطقس حارا انما النور لذيذ وكانت مناجب صهباء تراقبني من مكانها في أعلى الشجر بكل طمأنينة •

ارتحت لمرآها ، ورحت أمشي في الغابة ناسيا حزني ومتنقلا بين الاشجار مارا ببعض الحمام البري وبعض الطيور المختلفة المتنقلة فوقي من رأس شجرة الى رأس أخرى • وبين الاوراق أيضا ، كانت رفوف كثيرة من العصافير تغرد بدون انقطاع ، وأنا أصعد في طريق الغابة صوب تلة عالية ، ما بلغتها حتى أشرفت على كل المنطقة ، فجلست على حجر •

مع الغروب ، بدا النهر منسابا في البعيد ، وفيه مركب على متنه صيادان • الى يساري تنتصب السنديانات العالية الخضراء والصنوبر الباسق ، تتخللها مع ذاك الغروب تموجات زرقاوية ومجاري سيول خبازية تختلط في مشهد تنسحب عنه خيوط الشمس الاخيرة •

في البعيد ، من زاوية محددة ، بدت قرية من ستة بيوت أو سبعة وبرج وجرس صغير ، تتصاعد من ورائه السنة دخان • وفي مكان آخر من تلك التلال ، بدى الطريق الى القرية • أما الجبل حولي فكان أجرد لا حركة فيه ، الا حمار على الطريق ،

يتجه صوبي وعلى ظهره فقتان يسير بهما بطيئا ففكرت :

« آه ، انه حمار ياقوتة . سأرى ... » .

وانتظرت وصوله بقلب خافق ، لكن الحمار انحرف فجأة الى اليمين وغل في غابة الصنوبر .

بعدها بقليل ، بدأت العتمة تنتشر في المكان وأنا غير متنبه لها ، حتى اذا تنبهت ، كان الليل خيم تماما فعدت سريعا الى المرسى .

وجدت المركب ما زال في مكانه ، لكنني ... لم أجد گاتزو .

الفصل الرابـــع

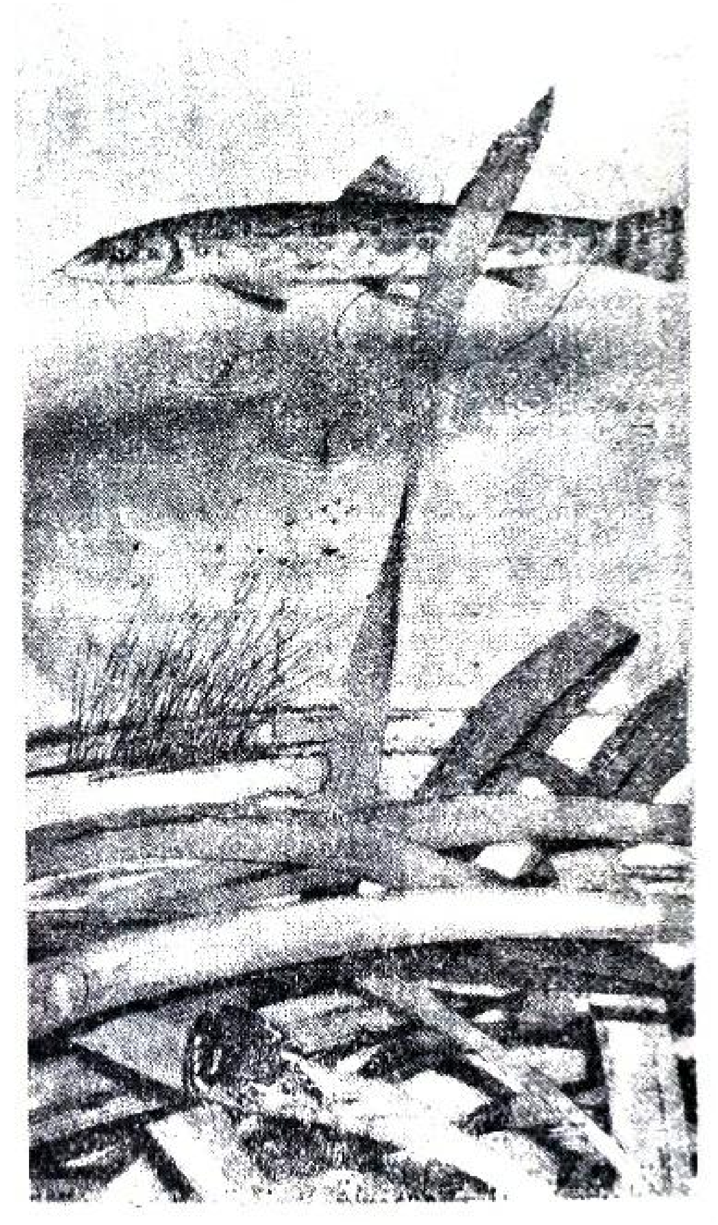
المفـــــاجأة



(المفــاجأة)

أيكون غـاب نهائيا ؟

أحسست بهذه القناعة ، لكنني لم أشأ تصـديقها . لذلك بقيت على انتظاري . وكنت أقول في نفسي : « لابد أن يعود .



قد يكون في جولة . أنا أخطأت في تركه لوحده . لابد أنه ضجر »

ولم أكن شديد الاقتناع بما أفكر . لكنني ، مع ازديـاد غيابه ،

رحت أفقد الامل برجوعه • وكنت أضاعف أملي كي أتعزى قليلا • لكن ذلك لم يكن يجديني ، لانني اقتنعت أخيرا أنه ذهب ولـن يعـود •

كان كل ما حولي يؤكد أنني لوحدي : الحيوانات وأصواتها المياه وصمتها •• كل شيء • وكانت بالقرب مني ضفدعة تنق حزينة عند بحيرة صغيرة ، وتبدو هي الاخرى وحيدة وسط عب البقلة المائية • وقريبا منها غراب كبير الرأس مختبىء في عب حورة على الضفة الاخرى ، يشكو وحدته وعزلته الى غراب آخر قبالته على حورة في وسط تلك الجزيرة الصغيرة ، فيجيبه هذا بأناة وحزن ويكون حوار حزين يعبر بنعيقه مياه المستنقعات المجاورة • واذا لم يكن يأتيني أي صوت من المياه الساكنة ، فلأن المستنقعات تخاطبني بلغة الصمت • وبصمتها كنت اكتشف وحدتي أكثر •

ربما كنت خائفا ، لكن حزني أن أكون وحدي كان أقوى من خوفي • فلم يعد عندي الا أن أخشى ما سيحدث لي • كنت اتوقع أخطار غامضة من أصوات غريبة تهاجمني •

مع بزوغ القمر ، ازداد حزني • وحين انعكست أنواره الفضية على صفحات المستنقعات الهادئة ، اكتشفت كم وحدتي هائلة • كنت من العزلة بحيث رحت في سكوتي أنادي گاتزو ، بدون صوت ، خوف أية همسة مني تتردد صراخا في ذاك السكوت التام • وفكرت : « قد يعود الى القرية • ولكن ، كيف كان له أن يذهب بدوني » ؟

شغلتني فكرة خيانته والتخلي عني ، فنسيت حزني وخوفي . لقد كسر ، بذهابه ، أجمل صداقة في حياتي . تأثرت لذلك كثيرا. فلن أجد مطلقا صديقا مثله قويا شجاعا ماهرا حاذقا اكثر مني في كل شيء . على أي حال ، صديقي الاول .

امتلكني شعور داخلي عميق بأنه لن يعود ابدا ، فاعتراني اليأس وقررت مغادرة المرسى الحزين الذي بت فيه لوحدي ، وصممت على الذهاب بحثا عن صديقي .

افترضت أنه في هذه القرية المجاورة التي رأيت بعض بيوتها وقبتها وبرجها عند مغيب الشمس . وتذكرت الطريق الذي رأيت الحمار يصعد فيه ، فبدا لي سهلا سلوكه اذا تتبعت طريق السنديانات ، فتوجهت في البدء الى ذاك الطريق الذي ينعكس عليه ضوء القمر في وضوح . وقد ساعدني القمر كثيرا تلك الليلة فأضاء لي الطريق ، ونوره الرفيق خفف عني خوفي ، لان القمر ينعش بنوره النفوس الرهيبة أكثر من أي كوكب ليلي آخر . نور القمر يبدو قريبا منا ، يلامسنا ، يلاطفنا ، يرافقنا ، فنشعر بأنه يحرسنا ويحنو علينا ويبسط حنانه على الريف كله . من هنا يأنس له الاطفال حين يصحون ليلا ، فيجدونه يدخل من نوافذهم، وحين يعودون الى النوم يحمل اليهم القمر أجمل الاحلام .

ويبدو أن ما حصل لي تلك الليلة ، انما حصل في حلم .

صحيح أنني لم أكن نائما في غرفتي . ولكن كيف أفسر ما فعلته ليلتئذ ، وما رأيته وما تخيل لي أنني سمعته . وكله جرى ببساطة مذهلة ، إلا أن يكون كله جرى في الحلم ؟

غابة السنديان كلها مغمورة بضـوء القمر . وبين الاوراق الغارقة في العتمة ، كانت خيوطه تتسلل في أعمدة زرقاوية تصبغ أغصان الاشجار جميعها بزرقة نجمية . وحين خرجت من الظلمة الى واحدة من تلك البقع الضوئية ، أحسست أنني بت جسما صغيرا مضاء . قطعت الغابة بدون تعثر ، حتى بلغت الطريق الذي لم يكن صعبا إيجاده لانه مضاء تماما ، مما جعل سيري فيه سهلا ومنسابا ، بكل ما على جنبيه من أشجار لطيفة كأنها تحاورني أو تشركني في أخبارها وأسرارها . ولشـدة ما كان الطريق لطيفا . بدا كأنه خارج المكان والزمان وينزرع في نفس المشاة من أصدقائه حتى لا يعودوا يعرفون الى أين هم ذاهبون وفي أي وقت يجب أن يصلوا الى حيث هم ذاهبون . فاجمالا هـذه الطرقـات الاليفة لا تنتهي في مكان ، واذا انتهت ، ففي أمكنة أجمـل منها إلفـة

هكذا كانت حالي مع ذاك الطـريق الجميل في تلك الليلة القمرية اللذيذة . فكأنه موجود ، على خصـر تلك التلال ، فقط ليقودني الى تلك القرية المنعزلة الوحيدة ، كأنها قريـة من خارج هذا العالم ، لشدة ماكل الذي فيها يبدو بعيد الاحتمال واكثر من مرة خلال تلك الليلة الغريبة خيل إلي ، بأفكاري الساذجة ، أنني في بلاد الجن التي يحلم بها الاولاد وهي على أطراف الجنة .

نزلت الى القرية مـن أعلى التلة . كانت شـوارعها مقفرة وبيوتها مهجورة . مع أن منها لا تزال تتصـاعد رائحـة الخبز الطازج وحساء الحنطة ، مما يشير الى ان السـكان غادروا قبل وقت قليل . ولم يعد في القرية الا الهدوء والعتم .

حتى الكلاب ، المشاكسة عند مداخل القرية ، كانت غادرت المداخل لاحقة بأسيادها . الدجاجات كانت تنام . والقطط حتما غادرت مع المغادرين .

أكملت في الطريق الملتوي ، وأنا أمر من منزل الى آخر . في صمت مطبق ، حتى وصلت الى ساحة . وهناك انكشف لي السر كله : ها القرية بكاملها هنا . برجالها وحيواناتها ، والجميـع في انتظـار .

وكان الانتظار بدا واثقا من نهاية قريبة ، وبدا أهل القريـة طيبين صبورين ، ينتظرون برؤوس غير متوترة ، وبأنظار شاخصة في هدوء ، والجميع موزعون في صفوف مرتبة . الصـف الاول لجلوس على مقعد خشبي كبير ، يتوسطه العمدة ، بوجهه الاملس وشعره الكثيف الابيض ولباسه الجديد الذي كأنه منشـى حتى لم يكن يجسر على تحريك رأسه خوف انفراط القبة . كان ينظر أمامه تماما بصبر وصمت مما يضفي على هيبته ، كعمـدة ، هيبة اضـافية .

وبسبب جمود العمدة ، كان كل الباقين جامدين احتراما ، الى يمينه كاهن عجوز ، يداه مكتفتان على بطنه كالعادة ، ووجهه

المحسر المتنفخ يدل على اضطلاعه بشؤون الرعية واحتفالاتهـ • والى جانبه . الكاتب العدل ، العجوز هو الاخر . الناحل كسار . فاغر الفم بكل بلاهة ، واحيانا يحك أرنبة أنفه •

الى جانب الكاتب العدل ، يجلس الطبيب المتكرش بسترته التي من جلد «الالبكة» (حيوان ثديي) ، وقبعة من القش ، ومن حين لاخر يمسح نظارتيه بسنديله المرقش ليرى أوضح • وكـان هو الاخر عجوزا ملتحيا •

الى يسار العمدة ، كان الناطور يغفو متعبا ، كأنه أكثر رجال العالم شيخوخة ، بلحيته العسكرية الحادة والشريطة الذهبية وحل قبعته •

الى جانبه عجوز عريض الكتفين تنفلش لحيتـه البيضـاء على صدره ، ومن حين لاخر يرفع أنفه الكبير ليشم الهواء أوسـع ، بدون أن تتحرك في وجهه الادخن عيناه الخضراوان • انه الملاح القديم ، مفخرة القـرية •

الى جانبه ، بل تحت كتفه ، يتقوقع بائع التبغ ، وهو متقاعد جاوز الستين ، غليظ الشاربين ، ولا يبدو كالاخرين مهتما بكل ما يجـري •

كان ذلك مقعد الوجهاء • خلفه ، تجمع القرويون ، النساء أولا في ثلاثة صفوف : الى اليمين جميع الجدات ، في الوسـط النساء المتزوجات ، والى اليسار الانسات تجمعن في هرج ومرح

خلف النساء ، وقف الرجال في أربعــة صــفوف ، وبينهم السمين والناحل ، الملتحي والامــرد ، انمــا على وجوههم جميعا أمارات الهدوء والبساطة حتى السذاجة .

كان الجميع يتطلعون الى ناحية واحدة : صوب شجرة دردار هائلة تنبسط أوراقها ، كما القبة، فوق كل الساحة . وفي أغصانها المنخفضة ، علقت فوانيس صغيرة ومصابيح كبيرة ملونة . وتحتها ابسط مسرح صغير من القماش ، وعند طرفيه ، أمــام الوجهاء ، وقف الاولاد خلف مقاعد المدرسة ، الفتيان من اليمين والفتيات من اليسار ، ينتظرون ، هادئين كالكبار ، لحظة ما .

حتى ذلك الوقت ، كانت الســتارة لا تزال منســدلة على المسرح الصغير ، وعليها رسم جميل يمثل حمارا جالسا في مقعــد وثير ، يلبس نظارتين ويمسك كتابا ، وأمامه ولد جاث يصغي اليه. وفوق الحمار والولد ، قناع متوج باللبــلاب ، خفيض العينين ، ينظر الى الحمار والولد بابتسامة ذكية .

خلف المســرح ، كانت الكنيســة غارقة في الظلمة . وفوق الكنيسة والظلمة والمســرح وأهل القرية والمصــابيح والفوانيس وشجرة الدردار ، كانت السماء الوسيعة بقمرها النيساني الغامر الليل بشلالات فضة .

لم أنتبه الى ما جرى في البدء ، لانني كنت مشدودا الــى المشهد الساحر حولي بكل تفاصيله . ولكن ما أذكره أن كــل شيء ابتدأ بسماع صوت ، خلف المسرح ، يغني بصوت مرتعش

عجوز دخل فورا الى أعماق قلبي ، وكان مرشدا الى ما سيجري عند ارتفاع الستارة ، لانه راح يعدد الشخصيات التي ستظهر أمامنا باكية ضاحكة وتتصرف مثل البشر تماما ، ولـذا علينا تصديق ما ستفعله على المسرح •

بعد هذه المقدمة القصيرة ، ارتفعت الستارة على مشهد بستان ذي ثمار وفيرة كانت محط افتخار البستاني ، الواقف بينها بكل اعتزاز ، وحوله زوجته وابنه يركضان لالتقاط الفراشات الزرقاء ، وهو سعيد بهما ، ولـذا منع عليهما معاشرة البساتنين الباقين ، وكانا يطيعانه •

ذات يوم ، مر متسـول مرهق بالجـوع والعطش ، رأى دراقة متدلية فوق السياج ، فقطفها وهم بأكلها فظهر البستاني غاضبا ونهال عليه ضربا بالسوط حتى وقعت منه الدراقة وفر متألما من ضربات العصا ، بدون ان يتذمر أو يشتكي •

ثم نفهم أن هذا المتسول هو مبعوث الملك • ففي اللوحة الثانية ، عند تغيير المشهد ، يظهر الملك نفسه على غيمة ، غاضبا متوترا ، يتحدث عن البستاني بهياج جعل الحاضرين كلهم يخافون وخاصة البنات • ثم اختفى وهو يزبد بثورته وهياجه ، وسمعنا قرع طبول خلف المسرح ، مما يعني أن الملك ينفذ انتقامه لمبعوثه•

في المشهد الثالث . عاد المسرح الى البستان الارضي ، حيث كان ولد يلعب مطمئنا ، بينما تحت شجرة الدراقن [حيث كان قد مر المتسول] ، غجرية عجوز ساحرة تترصد الولد بعينين متقدتين

شرا • لمت ثمرة الدراق عن الارض . وبعدما تذوقتها اعادتها عند جذع الشجرة • وحين التفت الولد ورأى الثمرة . اكل منها فوقع مغميا عليه • عندها انكبت الساحرة فوقه وحملته في الفضاء البعيد •

ومرت سنوات •• وظهر على المسرح [في المشهد الرابع] جمع من الغجر كان الولد يعيش بينهم ، وقد كبر ، لكنه فقد ذاكرته بالسم الذي دسته الساحرة في الثمرة فبقيت كل ذاكرته فيها • كما لم يعد عنده شعور بالحسنى او بالخير • لذا بات أسوأ ولد في القبيلة يكذب ، يشتم ، يغش ، يسرق ، وقبضته دائما على السكين حتى بات الجميع يخافونه •

أما أهله ، فنسيهم من زمان ، منذ فقد ذاكرته • لكنهم ، هم ، يتذكرونه ، وما زالوا مقهورين لفقدانه ، بدليل أن الاشجار راحت تثمر موسما خلف موسم ، والبستاني لا يأبه ولا يقطفها ، وقد أصابته الشيخوخة ، ولم يفتأ يبكي من الصبح حتى المساء في غفلة عن زوجته ، حتى شاب شعره من القهر ، ولم يعد في صدره شيء من زهو الماضي • لكنه ، وزوجته ، كانا ما يزالان يأملان عودة ابنهما ، وينتظرانه كل يوم • لذا كانا يتركان الباب مفتوحا حتى يدخله بدون أن يطرقه • واذا بالغجر يصلون ذات ليلة يختبئون في الغابة • في تلك الليلة نفسها ، وصل متسول يستجدي وكان جائعا وعطشان • تذكر البستاني ذاك المتسول في الماضي ، فقدم اليه سلة من الدراق • لكن المتسول لم يأخذ الا دراقة واحدة ، عضها بدون أن يأكلها ، ثم قال للبستاني :

ـ إحفظها جيدا قرب مخدتك ، واصبر بعد . سيجيء يوم قريب يأكلها فيه أحد .

غاب المتسول . وكان الغجر شاهدوا كل ما جرى ، فقالوا : « هذا البستاني غني وسنسرقه » . واتفقوا على أن يقوم الولد معهم بالسرقة التي هو بارع فيها .

مع غياب القمر واشتداد عتمة الليل ، نعب البوم فدخل الولد الى البستان حتى باب البيت . واذ وجده مفتوحا ، تردد قليلا ، ثم دخل وهو يشعر بقيظ شديد ، وبحلقه يكاد يحترق من شدة العطش . التفت فوجد غرفة ، وفيها رجل ينام على ظهره ، فوقه فانوس صغير ذو ضوء شحيح ينير وجهه ، وبالقرب منه ، في صحن كبير ، دراقة غزيرة العصارة ، بانت فيها عضة خفيفة ، كأن أحدا هم بأكلها ثم أشاح . مد الولد يده الى الدراقة ، وحملها الى شفتيه . أي مذاق ! أي طعم لذيذ ! لكنها لم تبد له ثمرة ! فقد شعر بجسمه يتململ ، مما لم يعرفه من قبل ، وراح يصرخ :

ـ أين أنا ؟

فاستيقظ البستاني العجوز وهرعت زوجته على صراخه ، وأخذتهما الدهشة الكبرى : ها هوذا ولدهما !! وها هو يراهما ويعرفهما و ... يشهق باكيا .

عند هذا المشهد انسدلت الستارة .

من عادة الناس ، في مثل هذه الحالات ، أن ينفعلوا مع

الشاهد بكل سذاجة ، وأن يتقبلوا التسلية التي في المشاهد ، مترادفة مع الحكمة العميقة فيها .

تلك الليلة ، كان جميع الحضور منشرحين للمسرحية التي شاهدوها . وطوال العرض ، كان العمدة فاغرا فاه مذهولا ، فيما الكاهن يتثاءب من الضجر ، والطبيب والكاتب العدل منشرحان، والملاح كاد أربع مرات ينهض ويعتلي المسرح هاجما على الساحرة يريد أن يخنقها جميع العجز ، وفي كل مرة كان الجميع يهدئون من غضبه .

أما الحضور من الاهالي فكانوا مسرورين جدا ويصيحون خلال المسرحية تأثرا او حماسا . وأما الاولاد فكانوا صامتين بعيون مفتوحة كبيرة ، كأنما المشاهد خدرتهم ، أو كأن ساحرا جمعهم كلهم في شبكة واحدة من السحر اللذيذ . لذا كانوا ، على مقاعد المدرسة حيث اصطفوا ، يتنهدون معا أو يضحكون معا ، متلاصقين متلازين ، وجامدين في أماكنهم . وكانت بينهم فتاة وردية الخدين ، عريضة الفم ، خضراوية العينين ، صهباء الشعر مجدولته ، تتدلى منه عقدة على رقبتها . انها ياقوتة ، مبهورة الى أقصى درجات السعادة والفرح والخوف والحزن ، لشدة ما كانت منصرفة الى متابعة المشاهد .

بعد انسدال الستارة ، ساد صمت عميق . وعاد الصوت المتهدل العجوز الذي كان صدر قبل ارتفاع الستارة ، يلقي خاتمة المشاهد :

ـ أيها السادة ، انتهى العرض . وها كلبي الآن سيمر بينكم ليجمع النقود منكم ، فعاملوه بالحسنى لانه رفيق طرقاتي الوحيد ، ولان أولادي لم يعودوا في هذا العالم . وكما رأيتم في الاسطورة ، كان عندي حفيد سرقه لي الغجر ، وها أنا منذ خمسين سنة أعمل على ترقيص الدمى في قراكم . بعدي ، لن يجيئكم أحد برقصات الدمى ، وقد تكون هذه هي المرة الاخيرة أجيء فيها الى قريتكم ، لان الشيخوخة تثقل علي ولن تكون لي طاقة العودة اليكم في العام المقبل . لذا ، هذا المساء أودعكم الوداع الاخير ، فالرجاء أن تسخوا على كلبي المار بينكم ببعض النقود .

عندها بكى الحضور ، رجالا ونساء ، فيما عض العمدة .

وبصوت واحد ، قالت الفتيات :

ـ أيها العجوز ، اظهر لنا ، بعد ، ولو مرة واحدة .

كان صوتهن ناعما وحنونا ، حتى جاء العجوز من وراء المسرح ، فتماوجت الستارة ، وبان من فتحتها رأسه الاصلع المتطاول الذي يتوجه اكليل من الشعر الاشيب يمتزج بلحيته الطويلة المنسدلة كخيوط الثلج . كانت عيناه صافيتين وبريئتين ، حتى اذا ظهر أثار ثلاثمئة شهقة حزن من الحاضرين . كان يلبس معطفا قديما ، وشالا حول عنقه . وبدا أن هذا المهرج فقير ومهموم ، لدرجة أنه بظهوره أشاع جوا من الصمت والحزن . مع ذلك لم يكن يبتسم ، ولا كان يحاول أن يثير الاعجاب ، لكن البراءة كانت بادية على وجهه .

وقف هكـذا لحظات أمام جمهوره المذهول الصامت حتى سمع الجميع شهقة ولد فوق المسرح ، بين أوراق شجرة الدردار على الغصون الخفيضة . التفتوا ، فاذا هو : گاتزو . يبكي بكل القهر الذي في قلبه ، خجولا من أن يكتشـفه الثلاثمئة شـخص مذهولين لبكائه . وعلى المسرح ، كان العجوز ينظر اليه بذهول شديد لرؤية حفيده الضائع يهبط عليه فجأة من السماء .

صرخت النسـوة :

— إنزل ، إنزل أيها الصغير . سنسقيك نبيذا معتقا .

لم تبدر من المهرج العجوزأية إشارة ، بعد هذا الانفعال قطع عليه كل قدرة على الحركة لشـدة المفاجأة . كـان يتأمل حفيده متدلي القدمين من بين أوراق الشـجرة ، فيما گاتزو ، من أعلى الشجرة ، يتطلع هو الاخر بجده ، و ... يبكي .

عند جذع الشجرة ، كان الوجهـاء : العمـدة ، الكاهن ، الطبيب ، الكاتب العدل ، يشكلون حلقة ويبتسـمون لتشـجيع الولد على النزول من الشجرة .

وبعد وقت غير طويل ، هم بالنزول فبادرته النسوة المسنات:

— على مهلك ، إيـاك أن تقع .

وأخذ الرجال يهنئون المهرج العجوز بهـذه المصـادفة . أحدهم قال لـه :

— ما شاء الله ، أخف من سـنجاب .

وحين قفز گاتزو من الشجرة وجاء أمام العمدة ، ارتاح الجميع بعدما حبسوا أنفاسهم • وكان العمدة من الطيبة بحيث التفت الي الجميع وقال :

ــ أنا أقدم النبيذ المعتق •

وسرت بين الحضور تمتمات ارتياح ، فأردف العمدة :

ــ هلموا بالعودة • وبالترتيب : الصغار أولا ، ثم الفتيات ، ثم النساء ، وأخيرا الناخبون •

وهنا أفاق الناطور من غفوته وسار حاملا طبله في مقدمة الموكب ، ووراءه العمدة يمسك العجوز بيمناه ، وبيسراه گاتزو الهادىء •

خلفه ، في صف واحد ، الوجهاء الخمسة : الكاتب العدل الكاهن ، الطبيب ، الملاح ، وبائع التبغ • بعدهم مشى أهل القرية في مقدمتهم الصغار ، وبينهم يافوتة بعينيها الزرقاوين وخصلة شعرها المربوطة ، وهي تتطلع أمامها بخطى جادة واثقة •

في نهاية الموكب ، كان المسنون • وفي طليعته كان الناطور يضرب على طبله بيديه الهرمتين ، في مشية عسكرية وضربات عسكرية كان يترنح لها الجمع كله •

هكذا رحت أتأملهم يسيرون أمامي ، مرددين بأنهم منذ خمسين عاما لم يشهدوا احتفالا كما هذا العام •

عندما انتهى آخر صف من المرور ، رأيت الكلب ، في خطمه الصحيفة الخشـبية الصغيرة الـذي اعتاد أن يجمع بها النقود ، ويسير مترنحا هو الاخر في آخر الموكب .

وبعدما مر الكلب ، أحسست أنني بت وحدي تماما . لـم يكن أحد لاحظ وجودي أو تنبه لي ، ولا حتى گاتزو الذي كان يسير ممسكا بيد العمدة في احترام وسعادة وغبطة . تراه رآني ؟ لا أظن أنه رأى أي شيء أو أي أحد ، فهو الليلة ملك الموكب . لكنني أنا رأيته جيدا ، ولانني أحبه كان قلبي مغمورا بالحزن ، فامتلأت عيناي دموعا صامتة .

لم يبق من الاحتفال الا مقاعد المدرسـة فارغة والمسـرح الصغير القماشي بستارته المتروكة منسدلة وعليها الحمار الـذي يقـرأ .

أخذت المصابيح والفوانيس تنطفىء تدريجيا في أغصـان شجرة الدردار ، وفي قبة السـماء العالية كان القمر بدأ يهبط في طريقه الى التلال .

احسست اني وحيدا وحزينا ولم أعد أدري ماذا أفعل .

خلف المسرح المتروك ، كانت شمعة تحتضر بشعاعات نورها الاخيرة ، بعدما نسـي المعنيون أن يطفئوها ، فبقيت مشـتعلة في ارتجاف ، يتلألأ نورها الشاحب على الجوار بارتعاش . شـدني

منظرها . وهممت بالتقدم نحوها ؛ حين فوجئت برجل طويل ناحل ينتصــب فجأة أمامي خلف المســرح ، وهو يتكىء على عــود الســتارة ويتفحص المكان مليا .

وما هي حتى رآني .

إنــه بارگابو .

لم يبــد أية حركة .

فاستغللت هدوءه ، . و ... لذت بالفرار .

الفصل الخامس

اللقـاء بعد الفراق



اللقــاء بعد الفــراق

لا أعرف كيف بلغت المرسى ، لشدة ما ركضت ومشيت وأنا
لا اعي ولا ألوي على شيء . ولدى وصولي قرب المياه ، أجتاحني



شعور غريب بالصمت والوحدة . كانت المستنقعات جامدة تماما
كأن مياهها رصاصية وعلى وجهها غطاء شفاف من الرطوبة يغمـر

المشهد الحزين الذي كانت تصل اليه من بين القصب نجمه وحيدة .
أما القمر فكأنما ذهب يزور عوالم أخرى . وكانت الجزيرة .
وسط تلك المياه الحزينة ، كأنها سفينة ضخمة ، أخافتني حتى كدت
أخشى الاقتراب من ضفتها حيث يرسو المركب . لكنني سيطرت
على شجاعتي وحللت المركب ، ثم استخدمت العصا لابتعد به عن
اليابسة . وأنا أفكر : « الافضل والامر هكذا ، أن أسير بالمركب
بعيدا » . لكن المركب لم يكن يسير لان التيار كـان معدوما في
تلك المياه الراكدة . وبعد مسيرة قصـيرة ، توقف المركب كليا .
فتمددت في قعره ونمت .

لم يعد لي إلا أن أنتظر قدري ، وأنا عارف بأن هذه هـي
ليلتي الاخيرة من النوم في عالم المياه ، لذا شئت أن أنامها كما نمت
الليالي السابقة ، ممددا على ظهري أتنشق الرائحة الليلية للميـاه
الحلوة التي كانت تغلفني ، رغم الكوابيس ، بالهناءة والراحة .

عندما استيقظت ، كانت الشمس علت في قبة الفلك . وشعرت
قبل أن أجيل عيني ، بأن أحدا معي في المركب . ثم احسست على
وجهي بعبق رائحة القهـوة المدخنة والخبز السـاخن والغليون
المشتعل . فقلت قبل أن أفتح عيني تماما :

ــ بارگابو ، متى نقلع ؟

ــ بعد قليل . نشرب القهوة ، ونبحر .

نهضت فرأيت بارگابو جالسـا على المقعد ، في فمه غليونه

الطويل ، وهو مقرنص امام موقدة (حملها معه لا ادري من أين) يسكب القهوة الساخنة في وعاء فخاري بكل عناية • فقال :

— تعال ، خذ رشفة قهوة • ستدفئك وتنشطك في قيامك من النوم •

وأخذ يشرب هانئا ، فيما يداه على الخبز يتناول طعاما •

وبالفعل ، نفحتني القهوة ببعض النشاط ، فسألت :

— وماذا عن العمة مارتين يا بارگابو ؟

— تنتظرك •

— و ••• هل بكت ؟

— بكت •

وبعد قليل أضاف :

— ووالداك يعودان الى المنزل مع أواخر هذا الاسبوع •

فتمتمت في سري : « الحمد لله » • وبدا أن الامور ستسوى تلقائيا ، فتجرأت على السؤال :

— هل خفت عليّ في غيابي يا بارگابو ؟

تطلع بي مذهولا مستغربا لكنه لم يعلق ولا بكلمة • ففهمت من نظرته وموقفه أنه مسرور من عملي ثم أعلن عن الاقلاع ، فتنبهت عندها بأنني في مرسى غير الذي كنت فيه قبل يومي • كنا على الطرف الاخر من تلك الناحية المعزولة ولا يفصلنا عن مجرى النهر الا بحيرة شاطئية صغيرة • كنت أرى عبر الاسل انسيابه

وتياره السريع • والتفت فاذا بجانب مركبنا زورق صغير بستة ألواح وبدون مقعد انما بمجذافين كبيرين وصار كبير • قال لي بارگابو :

ــ هيا انتقل اليه • سنترك مركبك هنا فهو كبير وثقيل ولا يمكنه أن يسير في تيار النهر القوي • سأعود وآخذه لك لاحقا •

وانتقلت الى الزورق الصغير بدون حماس كبير • صرخ لي بارگابو :

ــ إبق في الامام •

فامتثلت ، وعلق بارگابو :

ــ الريح مؤاتية •

ثم رفع الشراع ، وكان عتيقا مرقعا ، فما لعب به الهواء حتى انتفخ ، وتحرك الزورق متماوجا على وجه المياه ، مبتعدا عن الشاطىء وموغلا في الماء •

كان بارگابو عاري الصدر ، ممسكا بالمجذافين ويعمل عليهما معا ، فكان الزورق أحيانا يتمايل حتى مستوى الماء فتتبلل ذراعي • وخفت أن يميل الصاري ، لثقله ، بالزورق لصغره فينقلب في الماء • لكن بارگابو لم يكن ليحمل هذا الهم ، بل كان يجذف بقوة والزورق يمخر مياه النهر بثقة ، حتى قطع الجزيرة السوداء والتيارات الصغيرة والمياه الهادرة •

كل ما حولي كان يوحي بالسعادة والفرح : باركابو ، الزورق ، الهواء النهري ، الفلك المتلىء بالعصافير ، اغبرار المساحات على اليابسة حول الضفاف وقد انتشر عليها نور الشمس الصباحية فجعلها تتماوج بين صفحة المياه وصفحة الفلك في ازرقاق جميل .

وسط هذا المنظر ، نسيت أحزاني وآلامي ، واستسلمت للهواء يلفح وجهي .

نحو الظهر ، بلغنا الضفة اليسرى حيث تناولنا الغداء . وهناك اصطاد باركابو بطة بواسطة بطيته ، وهي بندقية طويلة تستعمل لصيد البط البري ، وتعمل على الصوان . وحين صدرت الطلقة ، تركت خلفها في الفراغ خطا طويلا من الشرارات الحمراء وكثيرا من الدخان عبقت منه رائحة البارود والنار .

تلك الليلة أمضيناها في العراء .

وفي اليوم التالي أكملنا إبحارنا ، قريبا من الضفة ، في مياه هادئة . ونحو المساء ، أطللنا على الجزيرة . كان باركابو قليل الكلام . لكنه التفت وقال لي :

— الجزيرة باتت أمينة . مشطناها و ... خافوا فهربوا .

قال ذلك ولامس بندقيته ، ففهمت ، وسألته :

— أمينة تماما ؟

هز برأسه بدون أن يجيب . وفهمت أنه يخفي شيئا . لكنني لم أجرؤ على الاستفسار اكثر .

تجاوزنا الجزيرة . وانعطفنا حتى بلغنا الضفة . وما هي حتى بلغنا منزلنا قبيل هبوط الليل .

عبرنا الحديقة ، فوجدنا تحت عريشة الرواق مصباحا مضيئا فوق الطاولة التي مدت عليها المائدة لثلاثة أشخاص ، مع ابريق ماء والشاي وسلة خبز أصهب . ومن باب المطبخ المفتوح . بان الموقد وعليه مقلاتان وقدران . وأمام النار العمة مارتين جالسة في مقعد قديم ، بسريولها الابيض ، يداها على ركبتيها ، صامته جامدة تراقب الطعام على النار . كان وجهها يوحي بالطمأنينـــة ، وهي بانتظار الولد الغائب . ربما كانت كل مساء تشـــعل النار هكذا وتنتظر هكذا ، وتهيء المائدة بانتظار عودته .

وبعودتي ، أحسست أنها ملاك البيت ، أمـــام هـــذه النار وهذا الطعام الشهي الرائحة .

مع ذلك لم أتمالك من الاجهاش بالبكاء لدى دخولي . وإذ سمعتني ، استدارت وقالت بهدوء :

— تعال يا حبيبي ، تعال كي أقبلك .

فدخلت المطبخ باكيا ، فيما بقي بارگابو على العتبة ، بندقيته على كتفه . ارتميت على صدر العمة مارتين ، وهي تهدىء مـــن بكائي بكلمات حنونة ، فقبلتني وقبلتها ، واحسست عندها بجوع شديد ، زاده اطمئناني وما كان يعبق في شـــي من رائحة زكيـــة للطعام الى جانبي .

لطعام الى جانبي . جلسنا الى المائدة وتناولنا العشاء بصمت تام .

بعد ذلك انسحبت الى غرفتي للنوم . فيما بقي بارگابو والعمة مارتين يتبادلان كلاما بصوت خفيض لم اسمعه من غرفتي فوقهما . مع أنني أرهفت سمعي ، لانني كنت واثقا من أنهما كانا يتحدثان عني . ثم ما لبثت أن غفوت . وأنا مطمئن اليهما يحرسان نومي .

عاد والداي ، بالفعل ، في اواخر ذلك الاسبوع . وكما توقعت ، لم تخبرهما العمة مارتين عن عملية هروبي ، لكنها شكتني كالعادة كي لا تتغير عادتها بالتشكي . ومما قالته :

— لم ينم كثيرا . كان يقرأ كل الوقت ، وهذا ما كان يجعله عصبيا .

فوافق أبي بسذاجة :

— فعلا ، إنه يقرأ كثيرا .

ثم التفت إلي وزجرني :

— يجب أن تلهو قليلا يا بني . في سنك يجب ان تخرج الى الطبيعة .

جس لي نبضي فوجده متوترا ، وتفحص لساني فوجده أبيض، مما أذهل أمي فعلق أبي :

— لا تقلقي . هذا من نتيجة الامساك ، لان الولد يبقى كثيرا جالسا ولا يخرج .

وذهب أبي فأحضر لي سنا (جنس جنبة تستعمل ثمارها للاسهال) مما اضطرني أن آخذه غصبا عني انقاذا للموقف ، وهي عقوبة غير قاسية .

ولكي تخفف عني العمة مارتين ، جاءتني بأقراص حلوى كانت حضرتها خلسة لي •

كان من مفعول تلك الجنبة ، لا ان تنعشني بل أن توهن قواي ، مما سبب تفسيرا مختلفا من أهل البيت • أبي وجد ذلك خللا في الكبد ، وأمي رأت أن الخلل في الطحال ، والعمة مارتين شخصته في الرئة مشددة :

ـ منذ فترة وأنا الاحظ الصبي يتنفس بصعوبة • انتبهوا له جيدا تكتشفوا ذلك •

وبالفعل كان تنفسي غير مستريح ، انما أنا نفسي لم أكن أدري لماذا •

بعد أيام أعادوا إلي كتبي خشية أن يكون انقطاعي عن المطالعة هو سبب وهني • لكنني لم أقرأ فيها أبدا • كانت تضجرني •

مر حزيران وبعده تموز ، ومن الثمار الى الحصاد ، في طقس صيفي جميل جدا ، صفت صباحاته ورقت شمسه واحلولت أمسياته وراقت لياليه • ثم جاء آب ، وكان الحر لطيفا فلم تشح الينابيع ولا حتى يوما واحدا •

سوى أن وهني لم يفارقني • وكان ضجر" لم أجد له تفسيرا يحتلني بقوة • بدت لي الايام طويلة ، فلم أكن أدري كيف أصرفها بين البستان وتحت الاشجار • وأحيانا اذ أضجر من البقاء في البيت ، كنت أخرج الى الطريق ، منتظرا بدون فرح ولا أمل ،

وصول أحد ، أي احد : ساعي البريد ، حيوانا ، كلبا ، أو ربما ذاك الحمـار ...

حتى بارگابو لم يعد يأتي الى زيارتنا . ما ترى حل به ؟ لم يعد أحد في البيت يتحدث عنه . كان غيابه غريبا . مع أنه في أشهر القيظ خاصة كان يحمل الينا السمك ، على الاقل مرة في الاسبوع. كنت أفكر احيانا به ، مما يحزنني ويحجب عني النوم ليالي طويلة.

وازداد حزني في أيلول . حتى القطاف لم يبهجني كما مـن قبل ، رغم وفرته عامئذ أكثر من أي عام آخر .

وجاء تشرين شحيح الامطار ، فلم يهدر النهر كما من قبل ، ولا اجتاحت مياهه أراضينا كما من قبل ، مما أتاح حراثتها بأمان وأفرح العائلة بدون أن يخفف من حزني الـذي ، حتى في فترة الميلاد وبردها القارس ، لم أشعر بالبرد ولا بالفرح .

مر ذاك الشتاء عليّ قاسيا وطويلا وشديد الكآبة .

غالبـا ما كنت أفكر بگاتزو : أين يكون ؟ أحيانا ، مـع هبوط المساء ، كنت أراقب الطيور تمر بين الغيوم العالية ، اسرابا، فتثير في طيرانها بعض احزاني .

وكان أهلي يحزنون لحزني ، ويجزعون لفشلهم في اعادتي الى الفرح رغم جميع محاولاتهم المختلفة والعديدة .

وعاد الربيع بنسيمه العليل وسنونواته الراجعة الى المواسم،

فكنت اتنهد في شعور حائر بين الحزن والهناءة . وذات يوم قالت العمة مارتين :

ـ إنه يتنهد ، لكنه ربما تنهد استقبال الربيع .

ولكي تزداد سهرا علي ، طلبت أن أنتقل الى الغرفة المحاذية لغرفتها في الطابق الارضي ، فتم ذلك . وأحيانا في الليل ، حين تسمعني أتقلب في فراشي لتتأكد اذا كنت صاحيا أم أنني أهذي في حلمي . وأحيانا ، كي لا أوقظها لان نومها كان خفيفا ، كنت أجهد ، حين ينتابني الارق ، أن أبقى جامدا في سريري فلا أتحرك .

وذات ليلة ، حلمت الحلم التالي :

كنت في أول نومي ، لا غافيا تماما ولا صاحيا تماما ، بدليل أنني كنت أرى نجمتين بعيدتين من نافذتي المشقوقة فوق سريري . ثم ... خيل لي أن النافذة تنفتح تدريجيا لتظهر منها سماء مفتوحة وسيعة ممتلئة بنجوم عديدة تدخل غرفتي ، كثرت حتى امحت بدخولها الجدران فبت كأنني سابح في الفضاء . وتدريجيا تكون حولي مشهد يعج بالكواكب المتلألئة على صفحة نهر ليلي مشعشع ، تشتعل في عمقها نيران غير منظورة ، يتناهى وهجها الشاحب على عالم كامل من النباتات والحيوانات المائية ، وبينها رحت أتبين تنفس جذور الجزر الغارقة عميقا عميقا في قعر المياه . ثم أخذت وحوش تظهر من تلك الوهاد المجهولة ، لبعضها علامة النار الخضراء والذهبية على أعلى جماجمها المكللة بالشوك . كانت تتحرك بين الطحالب العملاقة . وأحيانا يهب تيار فيجرف مخلوقات

عجيبة ذات أشكال مخيفة تضيء فجأة ثم تختفي بسرعة ، وتبقى خلفها ظلال نجوم غريبة .

كان هذا الحلم يقض مضجعي ، وأرتعد للخروج من تلك الأمكنة المخيفة غير الحقيقية التي تهاجمني فيها وحوش وهمية . ويبدو أن رغبتي كانت شديدة ، فأخذت تلك الحيوانات المتوحشة المخيفة تخرج من حلمي تدريجيا ، لتحل مكانها رؤى أليفة ، كمساء صباحية صافية في فجر جميل ، ومشهد الربيع في الريف الساكن يطل على صديقي النهر . وهناك ، في هذا المشهد ، كنت أتيه فرحا جذلان في أماكن أعرفها : جزيرة القصب ، الجرف الصخري ، غابة السنديان . وفي هذا المشهد ، كنت منتشيا بالعصافير والازهار والحياة الحرة ، وخاصة بذاك الجون الصخري الصغير الذي كنت أمضي فيه أويقات جميلة أتأمل مياهه الهادئة وصخوره المهيبة . كانت مياهه من الصفاء بحيث يعبرها النور كما في الهواء، ويبان عمقها ضاحكا لنور الشمس، وعلى الرمل النظيف ، مجموعات من الحصى الصغيرة الرخامية الزرقاء او الوردية . وبين الصخور ، كانت المياه تتلاطم فتحف بها وتعود الى مجراها الكبيرة ، كأن ذاك المكان المجوف هو مصب مياه الامطار وذوبان الثلوج شتاء عن القمم العالية . وكانت الحيوانات المائية كذلك ، تجد في مأواها ، كأنه نوع من حديقة مائية لالعابها وتساليها ، في مأمن من افتراس الحيوانات المائية المفترسة .

تحت باقات الاعشاب المائية ، كانت حشرات صغيرة تتنقل وتتحرك هي الاخرى في مأمن من كل خطر ، فتزيد تماوج المياه تمويجات جديدة ملونة ومتماوجة بجمال وبهاء • ومن حين لاخر، تظهر ضفدعة صغيرة خضراء ألفت هذه الامكنة ، فتغوص ، فاتحة قوائمها على أوسعها ، حتى تبلغ الرمال في العمق الصافي الشفاف ، ثم تعود لتعوم نقطة خضراء جميلة على صفحة المياه المزرورقة ، فيظهر عنقها المتناسق وعيناها اللماعتان ، دون أن تبدو خائفة من رؤيتي أمامها جامدا مدهوشا بدون حراك •

ثم غاب عني كل شيء في المشهد • ويبدو أنني ، عندها ، غفوت تماما •

لا أدري كم كان مضى علي نائما ، لكنني استيقظت على صوت نقر خفيف عند نافذتي • لم أخف ، لكن قلبي أخذ يخفق بسرعة الدهشة ، وأنا أتمتم تلقائيا :

— بلى ! هذا هو !! لقد عاد !!!

قفزت من سريري وهرعت الى النافذة لهيفا :

— گاتزو ؟؟ أهذا أنت ؟؟؟

واذا بصوت هامش يتمتم اسمي ، صوت أجش أعرفه ، بادرني :

— عندي الكثير أرويه لك •

في هذه اللحظات ، تنهدت العمة مارتين في غرفتها ، فبادرت گاتزو :

— مهلا ، الافضل لنا أن نخرج ونتحدث عند حافة البئر •

قفزت من النافذة ، وتوجهنا معا الى حافة البئر • كان الطقس لطيفا ، والقمر مرتفعا في قبة الفلك لطيفا معطرا •

هناك ، بدأ گاتزو يتكلم ••

روى لي حكايته كلها •

كنت أصغي اليه بكل انتباه وتأثر • فجأة ، توقف عن الكلام، فاستفهمت :

— وبعد ؟ ماذا! بعد ؟

أجابني بايجاز :

— لقد توفي العجوز •

أمسكت بيده مواسيا • وفي هذه اللحظة ، فتحت العمة مارتين تدريجيا مصاريع النافذة • لم أدر اذا كانت رأتنا ، لكنها نادتني قائلة :

— پاسكاليه ، مع من تتكلم ؟

نهضت بصورة آلية ، ودخلت المنزل ، وأنا لا أزال ممسكا يد گاتزو ، فاندهشت العمة مارتين قائلة :

— هه !! من الذي معك ؟

— إنه ••• صديقي گاتزو •

تنفست عميقا وأردفت :

— رائحته بريـة •

فجرؤت على الجواب :

— إنه وحيد في هذا العالم يا عمتي •

تمتمت كلمات لم أفهمها ، ثم قالت لي :

ـ فليدخل • وغدا ننظفه بالفرشاة من رأســه حتى أخمص قدميــه •

ودخل گاتزو ، فأضاءت العمة مارتين شــمعة ، وتفرســت بگاتزو جيدا ثم أضافت :

ـ يبدو ولدا صلب العود • ويبدو جريئا وشجاعا • سنعرفه الى أبيك وأتولى تقديمه اليه •

لا أدري ، حتى الان ، ما الذي قالته لابي لكن أبي رق لحاله واستقبله بحفاوة •

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد گاترو صديقي • صار أخي •

أما حكايته التي رواها لي ، فاحتفظ بها لنفسي •

وربما يكون لي أن أرويها لكم •• ذات يوم •

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
(٢٢٠) لسنة ١٩٩١

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤١١هـ ـ ١٩٩١م



السعر ١٫٢٥٠ دينار

دار الحرية للطباعة